عبد البصير هتلر

رواية

تأليف

محمد على منصور

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

منصور، محمد على.

عبد البصير هتلر: رواية/ محمد على منصور – .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٧ .

١٢٤ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٣ ٥٢٦ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ - العنوان

٨١٣

obeikan.com

عبد البصير هتلر

رواية

تأليف

محمد على منصور

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢١٨٩/٢٠١٧

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٢٦-٣

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : عبد البصير هتلر

المؤلف : محمد على منصور

الغلاف : إسلام البلاط

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

مدينة القدس عام (١٠٩٩)

المدينة المقدسة أصبحت ركامًا، أبناء القدس صاروا أشلاءً، اختفت ينابيع الماء وتحولت للون الأحمر برائحة الدماء، ابتلعت الأرض الدماء حتى ثَملَت، وفاضت الدماء أنهارًا حتى وصلت لهامة الجياد.

القتل كالأعمى لا يعرف الفرق بين صغير وكبير،

لم يرحم أحدًا، ذبح الرضيع وذبح الكسيح، ترك الحكام العرب والمسلمون أبناءهم يُقتلون، لم يُرفع لهم سيف يحمي قبر نبي تهشم، يحمي مسجدًا كبيرًا تَدَمَّر، لم يحمِ طفلاً صغيرًا ذُبِحَ.

هرب كلٌّ منهم بذهب وفضة وعار سيلحقهم للنهاية، بينما أبناء أوروبا من ذاقوا العذاب من الرومان - ليحملوا رسالة المسيح - لم يحترموا أيقونة مسيح دمروها داخل دير كاهن صغير، دمروا داخل كنيسة كبيرة دمرت، حتى أبناء دينهم من العرب لم يتوانوا في ذبحهم كقربان لصليب - صُلِبَ عليه من دعا للسلام يومًا وراح من أجله - واتخذ اليهود موقف الشامت المُحَرِّض.

من ذلك اليوم اشترك أبناء السماء الثلاثة في تدمير قدسهم المعظمة، ويجب أن يدفعوا ثمن هذا، وصار العالم مكانًا لحرب اليوم، جعلهم الله جميعًا كالحيوانات يحاربون بعضهم من اجل

الحياة، كلُّ ما يُذكر كانت رسالة صغيرة - أرست قواعد عالم جديد -عثر عليها القائد صلاح الدين الأيوبي بنسخة مطابقة في قصر القدس بعد النصر:

من فيليب الثاني قائد فرسان المعبد(

إلي بابا روما، اليوم دمرنا قدس العرب وسنخلق قدسًا جديدة، سنترك العرب يقاتلون أوروبا، وبينما هم منشغلين سنصنع نحن نظامًا جديدًا، سيصبح ملوك أوروبا الجدد من نسل فرسان المعبد، سنخلق عالمًا جديدًا، تربة صالحة للحرب والموت، وعندما تتكسر سيوف المسلمين وتُهشم دروع الصليب؛ سيجدوننا نحن من نحكم عالمًا جديدًا حتى عودة المُخَلِّص (لوسفير)

وعندما تنتهي حربٌ سنشعل الثانية، والثالثة، والمائة،

وعندما تسقط مملكة الرب ستحكم مملكة الشيطان)

●●●

أن تشعر بالفناء هذا شعور لن تعيشه بحلم أو في كابوس، النهاية تقترب وهذا أيضًا لن تعيشه في حلم أو في كابوس بل في الواقع، قد ولكن ما يحدث لي الآن لم أره في أغرب أحلامي أو حتى في أسوأ كوابيسي؛ للأسف الشديد إنه حقيقي.

أقف مغمض العينين أخاف أن أفتحهما أو لا أتمنى أن أفتحهما، أتمنَّى أن يزول كل ما يحدث وكأنه لم يكن، أنا الآن أذوق ما صنعته، ولكني لم أعلم بأنه سيكون مُرَّ المذاق، تمنيت أن أفتح عيني وأجد نفسي بالفراش وأعود لحياتي الطبيعية التي بغبائي نقمت عليها، أنا الآن أفتح عيني رويدًا رويدًا؛ لأشاهد ما لم يتوقع أحد في العالم أنه سيحدث في يومًا من الأيام.

دعوني أصف لكم ما أشاهده الآن:

بيوت من خمسة أو ستة طوابق ولكنها لم تبقَ كذلك، أجد الآن أعمدة إنارة وإشارات مرور ولكنها لم تبقَ كذلك، أرى أشجارًا ونباتات وأيضًا لم تبقَ كذلك، أرى جنودًا وأطفالاً وشبابًا وشيوخًا ولكنهم ليسوا أمامي بل إنهم أسفل قدمي...!

لقد دُمِّرَت المنازل وأصبحت خاوية، أصغر ثقب بمنزل يتسع لمرور فيل من خلاله، ويبدو أنَّ منازلاً كثيرةً لم يتبقَ لها أسقف لأنها قد تساوت بالأرض، ناهيك عن عشرات المباني التي أُضْرِمَت فيها النيران.

أما أعمدة الإنارة وإشارات المرور فيبدو أنَّ أنوارها خفتت للأبد، ولكن إذا كان تبقى منها شيء صامد، حتى الأشجار والنباتات لم تسلم من الدمار.

هذا كلُّ ما تبقى من (برلين) أو كما ألقبها أنا «سيدة أوروبا المبجلة»

يبدو للوهلة الأولى بأنَّ طوفان نوح قد مَرَّ من هنا ولكن طوفان نوح لم يحرق، فلو كان مَرَّ كان سيطفئ هذه النيران، ولكن يبدو أيضًا أنَّ عذاب الله به رحمة عن بطش البشر المتجبرين، أمَّا الجنود والأطفال فكان أسوأ ما حدث؛ فكانوا جميعًا يسبحون في حمام أو شلال واحد من الدماء.

أجد الآن النساء بجانب الرجال بدون خجل، ولماذا الخجل الآن فجميعهم موتى! للحظات تخيلت أنَّ يوم القيامة يقوم بتمرين بسيط على هذه الأرض ولكن كيف سأكون أنا حيًّا، كان أسوأ ما رأيت هو الأطفال الصغار الذين تبولوا في ملابسهم، أي عذاب هذا وأي خوف قد شاهده الأطفال قبل قتلهم.

أخذت أشاهد وأتأمل ما يحدث أمامي، كان دخان اللهب كان قد أعمى عيني، لا أرى سوى الضباب، فكان كل ما بقي أمامي إمَّا الاستسلام وإمَّا الهرب، فلن ينتظروا ليفتك بهم الجيش الأحمر، لقد أتوا ولن يرحلوا إلا بعد أن يأتوا على الأخضر واليابس لن ينسوا (باربروسا).

بتلك السهولة عليهم الأخذ بالثأر ولم يعد الآن مجالاً للعودة؛ فالأحمر من الشرق، وأمريكا من الغرب أو بمعنى أدق الموت من الشرق، والموت من الغرب. وفي كل ذلك ظلَّ حولي المدافعون لم يرغبوا في الحياة أو النصر الذي لن يتحقق، بل أرادوا فقط حماية أغلى ما يملكون، لم يريدوا أن يرى أحدهم زوجته تغتصب أمام عينيه من عشرات الجنود الذين يشعرون بالوحدة بعد ترك نسائهم ويريدون الشعور بالدفء والحنان، أو يرى أبناءه أو أحفاده يُقتلون أمامه. ولكن أنا لم يكن لي أحد - من البداية - لأدافع عنه أو الموت من أجله، لا بل لدي، أملك شخصًا واحدًا كما يملكني هو؛ ذلك الذي حقق لي أحلامي، وأعطاني الفرصة مجددًا للعودة من أجل أن أنتقم، ذلك الذي سَمَّنِي بكلامه القوي والجميل كالعسل، هو الذي توحدت أفكارنا ورغبتنا في السيطرة، والآن تُقام ولكن ماذا حدث له الآن؟ أين أجده الآن؟

وفجأة ينتشر في الأجواء صوت إطلاق نار.

ما هذا الصوت؟ ما الذي حدث؟ ماذا؟ انتحر!

لقد انتهي كل شيء بالنسبة له، والآن يعطي نفسه أجازة استجمام طويلة، اعتقد أنَّ وجهته جهنم الآن وأظنُّ أنه قد وصل، ولكن ماذا أفعل أنا الآن؟ لم يبقَ شيء لي، أعتقد أنه يجب أن

أذهب خلفه إلى وجهته؛ فالآن لا وجهة لدي غيرها، وأعتقد أنَّ رصيدي من الجرائم يسمح لي الآن بالوصول لوجهتي، نعم يجب أن أرحل الآن.

أين وضعته أن؟ أجل، لقد وجدته، كم هو جميل، كل ما عليَّ الآن أن أضعه أمام رأسي وأضغط، وهو يعرف ماذا سيفعل، نعم إنه الحل المثالي؛ فمفعوله أكيد وسريع وأكون حتى قد تشبهت به في موته.

أخشى أن أنظر إلى الماء، أخاف أن أريه وجهي، ولكن يا الله أنت فوق في السماء وتحت على الأرض، وأنت أمامي وخلفي، أريد منك أن تسامحني، كل ما عليَّ الآن هو غلق عيني فقط، ها هي اللحظة التي انتظرتها استودعكم الله...

ويعلو المكان صوت إطلاق نار!

●●●

على بعد آلاَف الكيلومترات من عبد البصير كان شكل العالم يتغير، إشارات تلوح في الأفق عن اقتراب حرب عالمية جديدة - لم يرَ العالم مثيلاً لها حيث أنَّ الأزمات الاقتصادية في أوروبا منذ عام (١٩٢٩) أدت لاستفار الشعوب على الحكام ، ووصل حكام وتيرات متطرفة للحكم من بينهم الفهرر (أدولف هتلر)

قائد عاصر الحرب العالمية الأولى أزهى رجال عصره، وأكثرهم قسوة، الرجل الأبيض اللون ذو الشعر الأحمر المنخفض دائمًا على جانبه، صاحب الشارب المرسومة حدوده كحدود ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

كان هتلر يؤمن بأشياء عدة؛ أهمها بأنَّ اليهود هم سبب كل مشاكل ألمانيا ويجب التخلص منهم، وأنَّ ألمانيا يجب أن تسترد كرامتها من معاهدة فرساي(١٩١٩) بعد استسلام ألمانيا؛ فتم تحديد عدد جيشه بمائة ألف جندي، وحُرِمَت من جزء من أراضيها، على هتلر الآن تصليح الأمور

عليه توفير (مساحة العيش) لكل مواطن ألماني، وعلى أوروبا أن تخشاه، وأن تطيع أوامره وغير ذلك استباد أوروبا بالكامل.

ضم هتلر النمسا والمجر؛ لأنه أراد توحيد الدول الناطقة بالألمانية والحفاظ على نسل الجنس الأحمر – الألماني – أرقى أنواع الجنس البشري كما يزعم، وقد تَبَقَّى لهتلر استرداد مضيق دانزغ البولندي؛ الأمر الذي سيؤدي لاشتعال النار التي لن تخمد.

اليوم هو الأول من سبتمبر عام(١٩٣٩) أول قذيفة تم إطلاقها في الحرب على ميناء دانزغ، فقد استمرت المعارك داخل بولندا وتقدم الجيش الألماني بسرعة لا مثيل لها، مستخدمين الطائرات

والمدافع والدبابات في الوقت الذي خرج به فرسان بولندا على ظهور خيولهم! وكأنهم في حرب صليبية، أباد الألمان كل من وقف في طريقهم في ذلك الوقت وتحرك الاتحاد السوفياتي مكملاً على ما بقي من بولندا من ناحية الشرق.

ماذا تفعل بولندا الآن؟ ألمانيا من الغرب والسوفيات من الشرق، تجزأت بولندا لجزء ألماني وجزء سوفياتي، تقابل الجنود الألمان والجنود السوفيات مرحبين ببعضهم البعض، لم يتوقع هتلر تحرك بريطانيا أو فرنسا ولكن كانت المفاجأة.

هبت بريطانيا وفرنسا لمساندة بولندا من أيدي هتلر - الذي ظنوا به الضعف واستخفوا بقدراته - حيث في الساعة الخامسة والنصف صباحًا أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وفي الساعة الخامسة مساءً من نفس اليوم - الثالث من سبتمبر - أعلنت فرنسا الحرب، وبالتأكيد ستساندهما اليونان وبلجيكا وهولندا وغيرهم. لم يبقَ الموضوع لهوًا أو توسعًا ألمانيًّا؛ إنها باتت حرب أوروبية على القارة البيضاء، الآن ذبح أبناؤها بعضهم، وزينوها باللون الأحمر، ولكن كان هتلر قد عزم أمره فيما سيفعله؛ سيوجه كل قدراته الآن نحو الغرب، سيقوم باحتلال فرنسا.

●●●

نوفمبر(١٩٣٩) المملكة العربية المصرية

أعزاءنا المستمعين إليكم هذا النبأ الهام...نظرًا لما يشهده العالم من حرب؛ نهيبُ بكم إغلاق الأضواء والمصابيح عند سماع صوت الغارة حتى لا تتعرض منازلكم للقصف الجوي من الطيران الألماني.

لقد كان هذا بيان يُذاع عبر الإذاعة المصرية حيث يتم فيه تنبيه المواطنين من أخطار الغارة (حيث أنَّ أحدًا لا يعلم).

وأكمل المذيع: يحتفلُ اليوم مَلِكُنا المُعَظَّم فاروق الأول – ملك مصر والسودان – مع عدد من البشوات والبطوات بعيد ميلاد كريمته الأميـ...

– أغلقي هذا الصداع يا زينب.

– حاضر يا أمي.

أغلقت زينب المذياع وتطلعت بعينيها الصغيرتين تنتظر عودة أخيها عبد البصير من الأرض حتى

حتى لاح خياله في الأفق.

– لقد عاد عبد البصير يا أمي

- هيا إذن لنُجَهِّزَ الطعام.

- أمي أين أنتِ؟

- اجلس على المنضدة يا عبد البصير سوف أحضر لك الطعام الآن.

الحاجة فاطمة صاحبة الخمسين عامًا قد تبدو لك من الخارج بجسدها الهزيل وتجاعيد وجهها ضعيفة، ولكنها كانت تملك قلب وعزيمة أقوى من الجبال الكثيرة المحيطة بالأقصر من كل جانب، فرغت الآن من الطعام والتَفَّت الأسرة الصغيرة حول المنضدة.

- العمدة قابلني بالأمس أيضًا.
- موضوع الأرض ثانية هذا الرجل لا يمل؟
- لا تتدخلي يا زينب، وبماذا عرض أو هَدَّدَ تلك المرة يا بُنَي؟
- قال بأنَّ تلك آخر فرصة لديَّ، ورفعَ الثَّمن إلى عشرة آلاَف جنيه، وإن لم أقبل فلا ألوم إلا نفسي.
- لا تضعف يا بُنَيَّ.

- لا تقلقي يا أمي فإن قبره أقرب إليه من هذه الأرض.

- أحسنت يا بُنَيّ ولكن هل كل الحب ذلك للأرض أم لشيء آخر؟

- شيء مثل ماذا؟

- سعاد مثلاً.

- ساد جو من التوتر أرجاء البيت عدا زينب التي شغلها الطعام عن الحديث.

- لماذا هذا الكلام الآن يا أمي؟

- بُنَيَّ أريد أن أراك عريسًا، أريدك أن تنساها وأن ترى فتاة أخرى تتزوجها، أريد أن أرى أبناءك قبل موتي.

- أطال الله عمرك يا أمي.

بينما هذا الحديث مستمر شق هدوء القرية صوت غارة قادمة، انقلب الناس على وجوههم يُسرعون لإغلاق المصابيح والشموع، في ثوانٍ معدودة تحولت القرية في هذه اللحظة إلى مدينة أشباح، قام عبد البصير بإطفاء الأنوار وجلست الأسرة في صمت العيون متعلقة بالسقف، القلوب مضطربة تكاد تنخلع من بين ضلوعهم. مرَّت ثوانٍ وكأنها سنوات؛ فلو أضاء أحد عود

كبريت واحد كفيل بتحويل القرية إلى أنقاض، صوت الطائرات كان كصوت ذئب يعوي زاد التوتر والخوف، كان الأهل حتى يخشون من بكاء طفل صغير؛ حتى لا تسمعهم الطائرات ذات الأجنحة المسلوخة فتعاقب الطفل بالنسف. استمر الصمت لدقائق حتى لم يعد هناك أي صوت سوى صوت ضربات قلب أهل القرية الذي كان من السهل سماعه بوضوح، تأكَّد الجميع من انتهاء الغارة فعادت الحياة كالسابق، أشعلت الأنوار مرة أخرى، وعاد الأمان.

- عافانا اللّه من تلك الحرب.
- أخشى يا أمي أنَّ الأسوأ لم يأتِ بعد.
- كل مشاكلنا ستنتهي إذا رحلت برطنيا.
- المشكلة أكبر من الإنجليز، بل الملك وحاشيته وماذا تقولين أيتها البلهاء زينب اسمها بريطانيا وليس برطنيا.

وبينما العائلة تتجاذب أطراف الحديث حدث ما لا يُتوقع وبدون سابق إنذار؛ عربات الشرطة تحاصر بيت عبد البصير، المأمور بنفسه تواضع وخرج من مكتبه لإحضار عبد البصير لسبب لا يعلمه سوى اللّه. أهل القرية لا يصدقون ما يحدث من كل أشقياء القرية لا يتحركون سوى لعبد البصير - الذي تزن أخلاقه معبد الكرنك - ولم يسمعوا عنه شيئًا مكروه.

أمر المأمور العسكر بالقبض على عبد البصير، الذي خرج لهم بدهشة هو وعائلته - التي سرعان ما تحولت لبكاء من زينب، وتماسك من الحاجة - حتى عبد البصير لم يكد يقل شيئًا فسرعان ما أودعه العسكر في العربة وتحركوا به. تغير حال الأسرة بشكل كامل؛ الحاجة فاطمة أخذت تتردد بين بيت العمدة - الذي لا يستجيب لها - وبين قسم الشرطة الذي يتعامل فيه الأشخاص على أنهم من (بنها) لا أحد يُطَمْئِنُ قلبها عما حدث لابنها، في الوقت ذاته كان عبد البصير في غرفة تحت أرض القسم يُعَامَلُ معاملة أسير ليبي في جيش عمر المختار من الطاليان؛ حيث تعرَّض لكل أنواع التعذيب من الماء للنار للصعق الكهربي، في الوقت الذي لم يستخدموا الكهرباء في الإنارة والصناعة واستخدموها في التعذيب. مرت ثلاثة أيام في هذا العذاب المحدق وكما هو الحال في كل أنظمة الحكم الرقيقة الوديعة فالسجين لا يعرف لماذا يتعذب، والسَجَّانون لا يعرفون لماذا يُعَذِّبُون، وأخيرًا قرر المأمور وقف كورس التعذيب – اليوم - لعبد البصير وأمر بإحضاره إلى مكتبه.

- سيدي المتهم بالخارج.

- أدخله وأغلق الباب.

يدخل عبد البصير يَرْسِفُ في قيوده غير قادر على الحركة، يبدو أنَّ العسكر قد بالغوا بالترحيب به.

يقف عبد البصير أمام المأمور - الذي وضع قدم على أخرى بوضعية إمبراطور روماني - وخلف عبد البصير يقف أحد العساكر الذي يبدو عليه أنه من فصيلة يأجوج، ولكن لم يحضر أحد من فصيلة مأجوج معه.

- اسمك وسنك وعنوانك.
- عبد البصير السيد إمام ٢١ سنة، وأسكن في بيت والدي الحاج سيد إمام، القرنة بمدينة الأقصر.
- أنت موجه لك اتهام في قضية سرقة.
- سرقة؟ مَنْ؟ وأين؟ أنا لم أسرقُ أحدًا، أُقْسِمُ لك بذلك.

بيد تشبه الجاروف نزل العسكري على ظهر عبد البصير محدثًا صوت - رقع - تِسْع طبول في وقت واحد.

- في يوم الثلاثاء الموافق العاشر من نوفمبر قام المدعو عبد البصير السيد إمام باقتحام منزل العمدة - مخيمر أبو الفضل - وقام بسرقة مصوغات ذهبية يُقَدَّرُ ثمنها بما يقارب سبعمائة وخمسين جنيهٍ من عقود وأساور ذهبية

ولاذ بالفرار، ولكن مع سؤال شهود العيان أقروا بأنه السارق. وشهادة بعض عُمَّالِ أرضه بأنه لم يكن في الأرض لحظة وقوع الجريمة التي حدثت في تمام الساعة الرابعة عصرًا، ومع استجواب المتهم أقرَّ لنا بفعلته واعترف بتفاصيل الجريمة، وأقرَّ بأنه كان بدافع الآن تقام من العمدة...وأُغْلِقَ المحضر في ساعته وتاريخه.

- لكن أنا لم أسرق شيئًا ولم أعترف.

- لا أنت اعترفت، وإن لم تكن تُصَدِّقُ سأثبت لك...أدْخِلْ الشاهد أيها العسكري.

يدخل هذا الشاهد، وفجأة تظهر على وجه عبد البصير نظرة تكاد تقتلع عينيه من هول المفاجأة.

- من الذي سرق العمدة يا عبد البر.

نعم إنه عبد البر مساعد عبد البصير وصديق قديم، شاب أسمر هزيل، وجهه يحمل كل علامات التقشف الاقتصادي، وكان يُعْرَفُ بين أهل القرية بحبه الشديد للمال، وكان أهل القرية يقولون عليه إنه مستعد لبيع نفسه مقابل حفنة بسيطة من القروش أو (الملاليم).

فيَـرُدُ عبـد البـر علـى المأمـور بـكل ثقـة وكأنـه متيقـن أنَّ عبـد البصيـر هـو السـارق: إنـه عبـد البصيـر يـا سـيادة المأمـور.

- إذن أخبر عبد البصير فإنه لا يصدق.

لدقائـق، تبـادل الاثنـان النظـرات: نظـرة عبـد البصيـر الغيـر مُصَدِّقَة، ونظرات عبد البر الممزوجة بالشماتة الذي قَدَّمَ صديقه كقربان للعمدة الذي أعطاه وعد بلفور للحصول على المال والعمل.

- يمكنك الآن الانصراف يا عبد البر.

كان تأثيـر خيانـة عبـد البـر لعبـد البصيـر أكبـر مـن تأثيـر ثلاثـة أيـام مـن التعذيـب المتواصـل بـدون فواصـل، كان بمثابـة طعنـة في الظهـر، وبصـوت متهـدج: كـذب يـا سيدي...أقسـم لـك.

فيرد المأمور بصوت ساخر:

أعلمُ يا عبد البصير، وأعلمُ أنك ولد صالح ولا تفعل ذلك.

- إذن أنت تصدقني!

- أصدقـك ولكـن مـاذا افعـل؟ كل الشـهود والأدلـة ضـدك، العمـدة اسـتخدم مالـه وسـلطته ضـدك أيهـا المسـكين قليـل الحيلـة.

- أرجوك، فلتساعدني إذن.

obeikan.com

- أتمنى ذلك، ولكن لستُ أنا من بإمكانه مساعدتك.

- من إذن؟

- ليس شخصًا، بل إنه شيء أكبر من ذلك، ولكنك لا تريد أن تعرفه، يجب عليك فقط أن تنفذ كل الأوامر المطلوبة منك بدون تردد، وإلا سَتُشَرِّفُنَا هنا فترة لا بأس بها.

- سأفعل كل ما يُطلب مني، أريد فقط أن أخرج من هنا، أرجوك أنا لديَّ عائلة لا يجب أن أتركهم بمفردهم أمام العمدة.

- اتفقنا إذن، ولكن أولاً ستبقى معنا يومين حتى أخبرك بما يتوجب عليك فعله، ولا تقلق سَنُحْسِنُ معاملتك تلك الفترة.

●●●

أثناء ما كان عبد البصير في محبسه - يفكر فيما سيحدث له، وما هي المهمة التي سيكلفه بها المأمور، وكيف ستساعده على الخروج من ورطته - كانت الحرب تأخذ شكلاً آخر؛ كانت الحرب في جميع المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية، حتى الفنية والاستخباراتية، فمن يعمل سينتصر ومن يُنْتِجُ سينتصر.

أخذ الاتحاد السوفياتي - حليف اليوم وعدو الغد - في دعم هتلر؛ أمده بالقمح والسلاح والحديد اليوم ترسانات موسكو تعمل من أجل هتلر اتخذت الحرب شكلاً جديدًا؛ فلقد أقحم هتلر المدنيين في حرب إبادة حيث قام طيران ألمانيا بقصف المدن، والموانئ، والقرى، والبيوت والمدارس والمستشفيات، اشتعلت النيران في مدن بأكملها.

هاجم مدينة (وارسو) في العشرين من سبتمبر الحرب تأخذ شكل وحشي في إشارة أنه لن يسلم أحد، صرخات الأطفال تعلو وازداد نحيب النساء وَدَّعَ الرجال عائلاتهم في محطات القطار، مات المئات وتم تشريد الآلاَف، لم يكن ينقص الجيش الألماني سوى ارتداء خوذات بقرون؛ ليعيدوا سيرة التتار أساتذتهم العظام، في الوقت ذاته تولَّى شيطان بشري منصب رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل) رجل ذكي لا يقل شرًّا ولا وحشية من هتلر.

في الوقت ذاته كان يعاني عبد البصير وزملاؤه من جحيم جهنم - الذي هبط على الأرض من أجل تعذيب عبد البصير - وتحولت جزيرة (جيرسي) أمامهم إلى قدر لا مفر منه سوى الموت ولكن...ولكن عبد البصير مازال في محبسه!

●●●

غرفة معتمة لا يوجد بها نافذة، لا يصلها ضوء سوى بصيص من بين قضبان السجن لا تستطيع فيها تحديد زمن، أو ساعة، أو حتى أنت في الليل أو النهار، قم ينفتح باب مغارة علي بابا.

- هيا يا عبد البصير الباشا في انتظارك.

يعود عبد البصير للمأمور الرجل ذي الوجه العابس، صاحب الشارب المجزوز بالة جز عشب قديمة، يمتلك رأسًا تُشبه الماس إذا سقط عليها الضوء أشعت، بل وتعكس الضوء أمامها فهو أصلع لكنه يخفيها بطاقيته العسكرية ولكنه كان يمتلك هيبة دوق إنجليزي.

- المتهم بالخارج يا سيدي.
- أدخله ولا تدع أحدًا يدخل معه، أريده بمفرده وأحضر لي فنجانًا من القهوة السادة.
- أمرك يا سيدي.

كيف حالك الآن يا عبد البصير؟

- بخير يا سيدي، أعتقد أنَّ جروحي التأمت قليلاً.
- لا لا، ستصبح أفضل، وحتى لا أعطلك سأدخل في صلب الموضوع مباشرة.

obeikan.com

- أرجوك يا سيدي.

- أتعلم ما هو مصدر المال وسلطة العمدة؟ لقد كان العمدة أحد الغوغاء الذين لا قيمة لهم، ولكنه كان ذكيًّا؛ عرف طريق الوصول وأصبح من السادة.

- لماذا تقول لي هذا الكلام يا حضرة المأمور؟

- لأنَّ من ساعدوا العمدة لا يرغبون في بقائه كثيرًا؛ لقد مَلُّوا منه، يريدون الآن وجوهًا شابة تَحُلُّ محله، وأنا قد رشحتك أنت لهم.

- من هم؟

- الإنجليز

لنقل أنه كان وقوع برق من السماء أهون من تلك الجملة.

- خدمة صغيرة ستقوم بها من أجلهم، وفي مقابل ذلك سيمنحونك المال والسلطة؛ لتنهي بها على العمدة وتتوج على عرش القرية بديلاً عنه.

- أتريدني أن أعمل لحساب أعداء وطني؟ الذين ينهبون خير البلاد ويسيطرون عليها، ويجرون العالم لحرب مهلكة!

obeikan.com

- وطنك يدعمهم ويؤيدهم بل ويُطَبِّعُ معهم ما المشكلة؟

- سيدي قُلْ حُكَّامُك يدعمونهم وليس وطنك.

- عزيزي دعني أحكِ لك قصة صغيرة؛ فأنت لا تفهم شيئًا بعد في السياسة (كان هناك راقصة تعمل في الأفراح باجتهاد حتى ادَّخَرَت وجمعت مالاً كثيرًا يكفي لفتح «بار» أو خَمَّارة كما يقولها المصريون، المهم جَهَّزت البار وبدأت العمل به لم يكن هناك مشاكل سوى الجمهور العظيم صاحب الأيدي الخبيثة، والنظرات الثاقبة. لم تسلم منها أخذت تبحث عن حل؛ قررت الاستعانة بشخص يحرسها وظيفته أنه بلطجي، وفعلاً انتظم الوضع وصارت الأمور جيدة، ولكن بعد فترة بدا هذا الشخص بالسرقة والنهب بفترة وجيزة، علمت الراقصة ولكن ماذا تفعل؟ تطرده وتعود ومرة أخرى لتطاول الزبائن؟ فكرت في جلب بلطجي آخر ولكن عندما واجهته وطردته هَدَّدَها بأنه سيزين وجهها بماء ورد جميل يكفي لتحويل وجهها لخريطة كوكب الأرض قبل سبعة عشر مليون سنة؛ فما كان من الراقصة سوى الانصياع لرغباته حيث تركته يسرق وينصب. أصبحت تدير وجهها من أجل أن تسير الحياة فهي لن تخسر كثيرًا وهو لن يتوقف عن جشعه) يبدو

أنـك لـم تسـتوعب جيـدًا يـا عبـد البصيـر لكـن لا تقلـق؛ لا أريـد منـك أن تفجـر نفسـك مـن أجلهـم، هـي مهمـة بسـيطة واحـدة سـتفعلها، وسينسـونك بعدهـا تمامًـا طبعًـا بعـد أن يكافئـوك، وإذا أردت الاسـتمرار معهـم فهـم سـيرحبون بـك، السـت تعـرف قيـادة السـيارات؟

- نعم يا سيدي.
- إذن بإمكانك الرحيل الآن، وبعد أسبوع تأتي إليَّ.
- نحن نعيش في ترف يا عبد البصير.
- نعـم تـرف، الإنجليـز يقتلونـا تـرف، الملـك يسـتبد تـرف، حاشـيته تنهـب تـرف.
- هـذا لا يُقَـارَنُ بمـا يحـدث بالعالـم بالخـارج، ألا تعلـم بأمـر الحـرب.
- حرب أوروبا، نعم أعلم بها.
- أنـت لا تعلـم شـيئًا، ولا أحـد يعلـم شـيئًا، الجنـدي المحـارب في الميـدان لا يعلـم شـيئًا، الضابـط الـذي يأخـذ أوامـر لا يعلـم شـيئًا.

مـا يحـدث سـوى لعبـة ملـوك يُحَيُّـونَ جنودهـم وهـم ذاهبـون

obeikan.com

للمعركة، لا يعودون سوى في صناديق وأشلاء، لا يعلمون لماذا ذهبوا، ولا لماذا حاربوا، ولا لماذا قُتِلُوا، عليهم فقط العودة بالذهب والأراضي.

هذا هو حكم الفوضى، وعندما تحكم الفوضى فاعلم أنَّ القيم قد اُسْتُشْهِدَت قبل أن تُتَوَّجُ الفوضى.

لتبدأ مهمتك الوحيدة.

●●●

خَيَّم الحزن وغلب أجواء البيت، لم يخلُ المنزل من زيارات الأقارب والجيران الذين جاءوا ليطمئنوا على عبد البصير فور عودته، أخبر الجميع بأنهم احتجزوه لتأدية الخدمة العسكرية، ولكن بعد معرفة حالته الاجتماعية حصل على إعفاء، وصَدَّقَهُ الجميع بطيبة قلب أو رغبة في التصديق، فحتى لو كان ذلك حدث بلا أسباب فلن يستطيعوا فعل شيئًا للمأمور أو العمدة، عدا الحاجة فاطمة التي لم تنطلي عليها أكاذيب عبد البصير؛ خاصة بعد ما لاحظت الجروح التي في جسده ووجهه الذي نحل، وكلما واجهته تَهَرَّبَ منها.

ظل عبد البصير شاردًا طوال تلك الفترة فيما سيفعله، فيما سيحدث له، هل سيخون وطنه بتلك السهولة، لا وجود لشيء

اسمه خيانة كبيرة وخيانة صغيرة؛ الشر والخير لا يتجزآن، ولماذا يسألني عن القيادة وطريق الإسكندرية، كيف علم كل تلك الأشياء، راسي لم تعد تتحمل الكثير من الأسئلة.

سَيُجَنُّ جنوني قريبًا ماذا أفعل؟ نعم أُحْضِرُ المذياع قليلاً حتى أنسى ما أنا به، لا سأنظر إلى السماء، سأحاول أن أَشُقَّ السماء بنظري بل سأشقها بدعائي، سأرفع يدي إلى الله أن ينجيني مما أنا به، سأحاول النوم، حتى النوم يهرب مني ولكن يجب أن أنام؛ فإذا كان هناك كلام عن الإسكندرية فهذا معناه أنني سأقطع حوالي ١٠٠٠ كيلو متر.

في تمام السابعة صباحًا - كما هو الميعاد المتفق عليه بين عبد البصير والمأمور - حاول التسلل للخروج، لا يريد أن يرفع عينه بعين والدته، أو أحد من أهل قريته، يشعر بأنه يُخْرِجُ سِكِّينَةً ويطعنهم جميعًا في ظهورهم مرة واحدة، ذهب لباب المنزل وفتحه ولكن.

- أين تذهب يا بُنَيّ؟

- أمي! ألم تنمي بعد؟

- لقد صليت الفجر وظللت مستيقظة.

- لماذا؟

- كنت أدعو الله أن يخرجك مما أنت به، أتعتقد أنني لا أشعر بك؟ لقد صَدَّقَكَ الناس في أعذارك الفارغة، ولكن أنا لم أُصَدِّقْ، ولم أشأ أن أسالك أمامهم، هناك سر تكتمه في صدرك بُنَيّ؟

- لا يوجد يا أمي، صدقيني فقط الإجهاد وقلة النوم.

- لن أضغط عليك بُنَيَّ، اذهب لما أنت مقبلاً عليه سأنتظرك، ولكن كن حذرًا حفظك الله.

لم يُعَلِّقُ عبد البصير بكلمة، اكتفى بالخروج ولكنه كان مندهشًا من حديث والدته الغريب؛ كأنها تعلم أين سيذهب، وماذا سيفعل ولكن شَغَلَهُ أكثر ما هو مقبلاً عليه.

●●●

المأمور يقف عند أطراف القرية قُرْبَ الجبل، بجانبه شاحنة – عسكرية – وُضِعَ عليها علم بريطانيا العظمى، بجانبه جنديان إنجليزيان – بزيهما وسلاحهما – أصفرا اللون، نحيفان، يافعا الطول، ظهر عليهم كل علامات الملل من تلك البلدة التي تركا من أجلها بلدهما وصديقتاهما، يصل عبد البصير متشتتًا يخاف أن يراه أحد.

- هل أنت جاهز يا عبد البصير؟

- نعم يا حضرة المأمور.

- كما فَهَّمْتُكَ، عليك إيصال هذه العروسة وأقرباءها إلى زوجها في ميناء الإسكندرية.

- عُلِمَ ويُنَفَّذُ، ولكن هل ستتركونني بعدها؟

- أَعِدُكَ بذلك، ولكنها فرصة عظيمة لك.

- لا أريدها سأذهب الآن.

- عبد البصير لا داعي لأُحَذِّرَك إذا حاولت التلاعب أو الهرب؛ فصدقني حتى جثتك لن نستطيع العثور عليها، وتذكر هذا دائمًا، هذه بلدهم وليست بلدك.

- أعرف هذا جيدًا، ولكن قبل أن أرحل لديَّ سؤال واحد لك يا سيدي.

- تفضل يا عبد البصير.

- هل أنت سعيد بما تفعله في بلدك؟ أقصد بلدهم؟

- (أنا سعيد إذا كان قادتي سعداء).

- أدامكم اللّه ذكرًا لنا وللوطن (أخذكم اللّه) في تمتمة.

obeikan.com

كانت الرحلة سريعة استقل عبد البصير الحافلة والجنديان بالخلف يأكلان ويشربان ويمرحان ولكن لا يغفلان، وكأنهما زوج من الخنازير التي لا تفعل شيئًا سوى الأكل والشرب.

كانت الحافلة دسمة حقًّا؛ فقد امتلأت بعدد كبير من السلاح والذخيرة والقنابل وبعض المؤن والطعام، فَكَّرَ عبد البصير ألفَ مرِّة أن يُلْقِي السيارة - وهو فيها - في النيل، أو أن يصطدم في شجرة ولكن لن يموت كافر من أجلهم. سرعان ولاح في الأفق بمبانيها الفخمة وهوائها المنعش، نعم إنها مدينة الإسكندر الأكبر وأنجاله، تستطيع تمييزها بسرعة فائقة، لم يكن عبد البصير قد زارها منذ سبعة أعوام مع أبيه الذي حاول إنسابه إلى المدرسة البحرية، ولكنه حصل على أعلى وسام للشعب المصري (الاستمارة ٦) ولكنهم ذهبوا للشاطئ، ومرح عبد البصير وأبيه وتَعَلَّم السباحة في زمن قياسي كأنه - صغير دولفين - ولكنها مجرد ذكريات.

وصلوا للميناء، وبالتأكيد وجود شارة بريطانيا هي مفتاح لكل الأبواب المغلقة، حتى ولو كان باب قصر الملك أو حتى غرفة نومه، بل ويتم تقديم التحية كبطل فاتح، سرعان ما وصل عبد البصير للقطعة البحرية البريطانية (إليزابيث ٣٢) عملاق بحري، تستحق أن يبتل سروالك أمامها، ولكن عبد البصير سرعان ما أفرغ حمولة سيارته الثقيلة مع العمال وودع الجنود وهبَّ بالرحيل.

- سأعود أنا للأقصر هل تريدون مني شيئًا آخر؟

- إلى أين أنت ذاهب، إنَّ اسمك مُدْرَجٌ معنا في قوائم خدمة المجهود الحربي البريطاني.

- ماذا!

●●●

لم يكن عبد البصير قد فاق من غفوته، أحقًّا ما سمعه أم عناء السفر جعله يتوهم.

- أخبرك بأنَّ اسمك مُدَوَّنٌ لدينا، سوف تستكمل السفر مع الحافلة إلى مثواها الأخير.

- هل جننت؟ لقد أخبرني المأمور بأنني سأنقلكم فقط إلى الإسكندرية، ثم أرجع أدراجي.

- أيها الأحمق مأمورك هو من أعطانا اسمك وجلبك إلى هنا، والآن إمَّا أن تصعد إلى السفينة بإرادتك أو سيكون لنا تصرف آخر.

- لا لا، أنتم تكذبون، أرجوكم لديَّ عائلة وأسرة لا أستطيع تركهم، أخرجوني من هنا..

obeikan.com

يبدو أنَّ مزاج الإنجليز كان غير صافٍ؛ فلم يناقشوا كثيرًا؛ الأمر الذي جعلهم يجرونه إلى داخل السفينة، ومن ثم إلى مؤخرتها حيث يجلس زملاؤه في رحلة الاستجمام تلك.

تحول عبد البصير لطفل صغير، حاول الصراخ والهروب وكأنه طفل – صغير – ضاع من أمه تجذبه أم رجل مسلوخة؛ لتُعِدَّ منه وجبة دسمة ولكنه كَبُرَ بسرعة من طفل لمراهق حيث أخذ في المقاومة، ويضرب الجنود الذين أمامه، ولكن ماذا يفعل هو – بيده – أمام جنود مسلحين لم ولن يدخروا جهدًا في تأديب هذا الشاب – العاصي – بأيديهم أو بأرجلهم أو حتى بأسلحتهم.

- اتركوه لعنكم الله سيموت بين أيديكم.
- فلتتركه لي أيها الجندي؛ سوف أتولَّى أنا أمره ولن أجعله يفكر في الهرب من هنا مرة أخرى.

ولكن أثناء تلك المحاولات لم يَدَّخِر أحد من الجنود جهدًا ليضرب عبد البصير- بمؤخرة بندقيته على – ظهره، فجأة تحولت الحياة أمام عبد البصير إلى ألوان – أخضر ثم أزرق ثم أحمر ثم إلى الأسود – وسرعان ما غاص في سبات عميق.

●●●

بـدا كل شـيء جاهـزًا؛ امتـلأت مَعِـدَةُ - الصغيـرة -إليزابيـث (٣٤) بسـلاح ووقـود وخيـرات الشـعب المصـري، بـل وأبنـاء الشـعب المصـري وغيرهـا مـن الأشـياء، هـي الآن جاهـزة لتسـبح في المتوسـط إلـى المكان الـذي يجـب أن تذهـب إليـه، ولا أحـد يعلمـه سـوى القليـل. عليهـا أن تلتـزم السـرية؛ حتـى لا تكـون تلـك النعجـة السـمينة صيـدًا سـهلاً لذئـاب هتلـر الجائعـة، أطلقـت صافـرة الـوداع التـي هـزَّ صوتهـا أرجـاء المدينـة، ركـب الجنـود، رُفِعَـت المراسـي وأخـذت طريقهـا.

- هل استفاق يا شيخ؟

- سيفيق الآن مجرد كدمة بسيطة.

- أعتقد أنه يفتح عينيه.

- انتظر...بُنَيَّ هل تراني؟ كم هذا الرقم؟

- ثلا...ثلا...ثلاثة.

- حمدًا لله على سلامتك.

بصعوبـة يفيـق عبـد البصيـر ويفتـح عينيـه علـى الشـخصين الغريبـين، شـعر أنـه قـد سـمع صوتهـم قبـل الآن، ولكـن عقلـه مشـوش في تلـك اللحظـة.

- أمازلنا على السفينة في الإسكندرية؟

obeikan.com

- نعم مازلنا على السفينة ولكن لسنا في الإسكندرية.

- لقد عبرنا جزر إيطاليا منذ يوم يا رجل.

- ماذا! خرجنا من مصر؟ إنَّ أهلي الآن بمفردهم، وأنا ذاهب إلى شيء مجهول لا يعلمه إلا الله، ارحمني يا الله وألهمني ماذا افعل؟

- اهدأ اهدأ يا بُنَيّ، هذا قدر الله وهذه مشيئته ماذا ستفعل؟

- ده يا شيخ، الآن يفيق من صدمته ثم نعود إليه وقت آخر، لا تخف لن يؤذي نفسه.

رحلا بالفعل، ولكن هل عبد البصير لن يؤذي نفسه فعلاً؟

●●●

مكان غريب مجهول قاعة كبيرة في سفينة حربية، ولكن ليست كأي قاعة؛ مكان كبير واسع قذر ومريع الشكل، تآكلَ حديده من الصدأ، يضيف للمشهد شعورًا بالنفور والكآبة، في آخره سلم حديدي يؤدي لباب مغلق يقف خلفه عشرات الجنود المسلحين. أمَّا من كانوا بالداخل فكانوا مجموعة من مئات الأشخاص، ولكنهم ليسوا من جنسيات واحدة، بهم عِمَامَات هندية، وبَشْرَات

إفريقية، ولهجات سودانية، وعيون مصرية تلحقك أينما تذهب. كان من بينهم وجهان مألوفان لديه ولكنه لم يرغب في الاحتكاك بأحد في الوقت الحالي؛ حتى يهدأ ويستوعب ما هو فيه، لم يكن هناك مصابيح فقط، بل يوجد أيضًا نوافذ دائرية – مغطاة بالزجاج من كل جانب – تقوم بإدخال بصيص من ضوء القمر الخافت، يشكو به حزنه في محبسه في الفضاء المظلم وحيدًا.

استَمَرَّ عبد البصير أيامًا يتعلق بنظره للفتحات، لا يفعل شيئًا سوى أن يلعن العمدة والمأمور في كل يوم، ويلعن أيضًا غباءه الشديد الذي أوصله إلى هنا.

بعد فترة سمح لهم الجنود بالخروج لسطح السفينة؛ ولم يكن ذلك شفقة ورحمة بل ليقوموا بمساعدتهم في الأعمال والتنظيف والطبخ، ولكن لا بأس بذلك فقد كان الطعام اليومي يكفي لجعلك تخسر حوالي مئتي كيلو جرام أسبوعيًّا؛ فبعض الخبز والماء قد يبقيك على قيد الحياة في أحد الأيام.

انتهى عبد البصير من بعض الأعمال، ومن ثم وقف أمام البحر يشكو همومه له، يتذكر ما حدث له، يتذكر تلك الأيام عندما كان بيده الاختيار، ولكن لماذا تروى الأحداث من هذا الموقف، علينا أن نعود قليلاً للوراء لمعرفة سبب حدوث كل هذا.

نحن الآن في التكية المصرية أو المملكة المصرية المملوكة - بالأوراق والمستندات - للسيد الملك فاروق فؤاد وبعض أسماء الملوك، ولكن يبدو أنه يملك الآن شريكًا، ولكن ليس بالأوراق ولكن وضع يد (بلطجة) وهم إخواننا الإنجليز أبناء بريطانيا العظمى. كان ذلك في أواخر عام ١٩٣٨ حيث كانت تشهد مصر فترة من أزهي عصورها، حيث نهب الملك وحاشيته وازداد القمع من بريطانيا الشقيقة، وكان الملك يُغَيِّرُ خمس أو ست وزارات - في العام - أكثر من المرات التي كان يُغَيِّرُ فيها سرواله الداخلي. ولكننا لنا من قبل (التكية المصرية) وكان العالم في ذلك الوقت مُسْتَعْمَرًا حيث كانت تحكم الخالة إنجلترا والعمة فرنسا نصف تكيات العالم الحديث، وكانوا يتبادلون المستعمرات كأوراق الكوتشينة في لعبة بوكر سريعة؛ وهذا ما أزعج (العَمّ والعَمَّة) ألمانيا وإيطاليا.

فقامت إيطاليا باحتلال - الصغيرة الزنجية - الحبشة

وتولَّى الحُكْمَ الفاشية الإيطالي (الوديع موسوليني) حيث وقف الإمبراطور الروماني الجديد (موسيلينيوس) في الساحة أمام الشعب والجنود مُعْلِنًا بأنه سيستعيد مجد روما الضائع، والانتصارات وكلمات لا قيمة لها، الفرق الوحيد أنه كان يرتدي الزي العسكري بدلاً من زي الأباطرة.

هل يوجد فرق بينهم؟

أمَّا ألمانيا فكان الوضع مختلفًا تمامًا؛ فبعد السيطرة على السنغال فقد قضوا على حُكْمِ القياصرة، وإقامة عهد جديد من الحُكْمِ الديمقراطي – السعيد – الممزوج بطعم النازية التي تولَّت الحكم بقيادة الفهرر (أدولف هتلر) اسم صغير، ولكن سيغير مجرى العالم لا بُدَّ.

العالم الآن يلتهب في صمت سكون يسبق عاصفة،

إشارات الخطر ترتفع، لم يفق العالم كُلِّيًا من صدمة الحرب الأولى، فماذا يحدث لو قامت حرب جديدة؟

لقد انتهى درس التاريخ الممل، الآن لنعد إذن للقائد الأعلى للقصة السيد (عبد البصير إمام).

سنبتعد الآن عن هذه الأجواء المتوترة الغير صحية سنذهب إلى مكان – هادئ مريح للنفس – بعيدًا عن أوروبا وصراعها، نحن الآن على بعد ٨٠٠ كيلو متر من مدينة القاهرة – عاصمة مملكة فاروق العربية –وتحديدًا في مدينة طيبة سابقًا والأقصر حاليًا في أقصى صعيد مصر.

الصعيد في مصر هو وجوه سمحة، نفوس قانعة، خيرات لا متناهية، تجاهل أحمق من كل رجال الدولة - منذ عهد المماليك حتى الآن - طيبة أهلها المبالغ فيها والتي تصل إلى الضعف أحيانًا، وآخر من تبقوا من نسل عرب الصحراء الأشداء.

أنتم الآن لستم ببعيدين عن البيت، فقط اعبروا البر الغربي من النيل؛ فأنا أسكن في منطقة القرنة، أو الجرنة بنُطْقِ أهلها، أسكنُ بالقرب من الأراضي الخضراء، فالنيل جاري والجبل صديقي، ولديَّ جارة - عزيزة - مشهورة كثيرًا قد تكونوا سمعتم عنها، إنها الملكة حتشبسوت، فمعبدها الدير البحري على بُعد أميال من منزلي.

ولكن جارتي لم تَسْلَمْ من المُحْتَلِّ كباقي الوطن، لقد سرقوا بلدنا وطعامنا، فهل سيتركون آثارنا بتلك السهولة، لقد تقاسم الإنجليز والفرنسيون آثارنا- مَسَلَّة هنا وتمثال هناك - كأنهم يتقاسمون حلوى العيد.

وأمام منزل صغير - من طابق واحد - زُيِّنَت واجهة البيت بالشروخ، لم يسلم من عوامل الزمن، رُسِمَت على الواجهة كعبة شريفة، وجمل بَارك ينظر بخشوع لبيت الله، كُتِبَ فوقها «يا داخل هذا الدار صَلِّ على النبي المختار، كان هذا بيت المرحوم الحاج سيد إمام (رَحِمَه الله) حيث أنا وعائلتي نعيش.

عبد البصير...عبد البصير هيا استيقظ.

لم يكن هذا سوى صوت زينب شقيقتي – الصغيرة – وهي جزء من عائلتي – الكبيرة – المُكَوَّنَة منِّي، ومنها، ومعنا الحاجة فاطمة أمي العزيزة.

●●●

- أمي...أمي...عبد البصير لا يريد أن يستيقظ.
- كفى يا زينب، لقد استيقظتُ الآن.
- هيا يا بُنَيَّ، لقد أعددتُ لك الإفطار، أسرع حتى لا تتأخر على العمال في الأرض.
- قادم يا أمي.

استيقظتُ للتو من نوم عميق، وقت كانت فيه حياتي مطمئنة في البيت الذي كبرت به، بيت من طين وصلصال، على سطح البيت كانت أمي ترعى قطعان من الدجاج والإِوَزّ والطيور.

مع بيت متواضع وأثاث بسيط، ومخزون مدى الحياة من القناعة جاء لنا منحة من الله على بعض عِبَادِه،

كنا نعيش في سعادة، ولا نبتغي من الحياة سوى كتابة نهاية سعيدة، حين يأتي الأجل، إفطار دسم سريع، مكوناته: الجبن والفول، واستقطاب بعض الأحاديث السريعة؛ كانت كفيلة لبدء يوم عمل جديد أنا في الطريق الآن غارقًا في الأفكار.

صحيح لم أعرفكم بنفسي أكثر، أعرفكم بنفسي من ملفات الحكومة والبوليس السري؛ فهم يعرفون عن الشخص أكثر ما يعرفه عن نفسه وهو بالخلوة.

الاسم: عبد البصير السيد إمام، ابن الحاج سيد إمام وكان إمام وخطيب جامع القرية.

كان قويًّا وصارمًا في الحق، كان يحبه الناس وكان يكره السادة، رحل عن عالمنا منذ خمس سنوات، أورثني سمعة طيبة - تكفي للحفيد التاسع والثلاثين - وأرضًا خصبة أعمل وأزرع بها ومعي بعض العمال.

أعتقد أنني جاوزت العشرين عامًا، كنت أبيض البشرة حتى قامت شمس مصر ببعض التعديلات وأصبح لوني قمحي لون٩٩,٩٩ من الشعب المصري.

أعتقد أنني وسيم نسبيًّا كما تقول أمي أم أنها مجاملة،

قصير الشعر، عاري الوجه إلا من ذقن خفيفة، نحيل الجسد كعود قصب، ليس لدي نشاط سياسي أو ثوري

ولكن توجد تجاهي بعض التحفظات؛ لأنني أحمل عَدَاءً

لواحد من كلاب السرايا، صاحبي الأجساد الممتلئة من خيرات الشعب وأصحاب المقولة الشهيرة (موافقون)

في جلسات مجلس الأمة، وهم مسالمين ولا يفضلون الاعتراض، يضعون مصلحة الوطن خلف مؤخرتهم السمينة.

●●●

- مَنْ؟ العمدة مخيمر هنا! أهلا وسهلا تفضل استرح يا عمدة.
- لَمْ آتِ هنا لأخذ واجب الضيافة، ألم يأتِ عبد البصير بعد؟
- إنه في الطريق لن يتأخر كثيرًا، تفضل واسترح حتى يأتي، سأجهز لك مكانًا جيدًا حتى تستريح به.

يجلس الآن العمدة - مخيمر كبير البلد - في موقع أمام النيل وأسفل شجرة، كان العمدة صاحب الـ٥٢ عامًا وهو الرجل الذي يمتلك خزنة بنك – بمعدته - مليئة بإيداعات من اللحم

obeikan.com

والدجاج والطيور التي تكفي لفتح ست مزارع، ولا بأس ببعض مزارع السمك وأشولة الأرز...وإلخ وإلخ.

أخذ بنظرات ثاقبة يتجسس الأرض والزرع والعمال، نظرات أشبه برجل يريد اغتصاب امرأة، ويتمنى اليوم الذي يُكْتَبُ فيه على هذه الأرض (الأرض ملك العمدة مخيمر).

- ما الذي أخَّرَكَ يا سيد عبد البصير؟

- ماذا هناك يا عبد البر؟

- الضيف الأسبوعي الثقيل بانتظارك.

كان يوم عبد البصير على ما يرام حتى سمع بمجيء «نبوخذ نصر الثاني» أو مخيمر العمدة فكلاهما واحد، وبنظرة مشمئزة نظر عبد البصير للثور - الذي فقد قرونه وذيله - المنتظر على أرضه وكأنه هو الضيف والعمدة هو صاحب الأرض.

شرع عبد البصير في التحرك تجاه العمدة وقد لاح بخياله اليوم الذي سيقضي عليه فيه، وتَخَيَّل نفسه (أوزوريس) يذهب للعمدة (ست) ليفصل رأسه عن جسده – المترهل - ولكن كان ينقص قصته – فقط - سيدة الحسن والجمال (إيزيس). للأسف كانت سيدة الحسن قد انتقلت في تلك القصة من بيت (أوزوريس)

إلى هيلتون (ست) الفاخر؛ فإيزيس في تلك القصة هي سعاد.

سعاد! وهل ينسى أحد سعاد!

●●●

سعاد بنت الحاج خيري (فيرجينيا) جميلة جميلات الأقصر، حلم عبد البصير منذ الطفولة منذ رؤيته لها تعقد خصلات شعرها الصفراء، التي تتوهج عند اقتراب الشمس منها؛ فتشتعل نار قلب عبد البصير؛ ليخرج دخان من عينيه له تأثير العطر. ولكن كان يبدو أنَّ هناك شخص آخر قد انضم للحفلة، وهل يوجد غيره؟ نعم إنه العمدة، ولكن العمدة - مع ٢٠٠ كيلو جرام وبعض المال الكثير جدًّا - تبدو فرصته أقوى، وخاصة أنَّ الحاج خيري - والد سعاد - كان يحب المال كصديق طفولة حُرِمَ منه، ودارت الأحداث سريعًا بين حسن وعزيزة الأقصر، حيث تتلخص القصة في خمسة تواريخ:-

١- (السبت اللي بعد حِنَّة سماح أخت سعاد)

أخذا على بعضهما المواثيق والعهود بتكملة مسيرة الحب الأبدي الذي نسي ترياق الأبدية وعدم التفرق؛ ووقع كل منهما وثيقة المحاربة على حبه، ولكن كانت أمريكا منشغلة؛ فلم

يحضر مندوبها للمشاركة في التوقيع.

٢- (الأربع اللي بعد دُخْلِة سماح أخت سعاد)

يتقدم العمدة لطلب يد سعاد من الحاج خيري ومعه بعض المال، وكثيرًا من الهدايا التي هي بمثابة الرشوة لوالد سعاد – الجشع – التي أخذت عينه في الاتساع عندما رأى هذه الهدايا والأموال.

٣- (يوم الجمعة رابع أيام شهر رمضان)

عبد البصير يقابل الحاج خيري ملتمسًا كل الطرق ليظفر بحبيبة القلب، ولكنه لم يجلب سوى بعض الأعذار، وكثيرًا من الوعود فضاقت عين الحاج.

٤- (الثلاثاء الموافق ليلة القَدْرِ المباركة)

الحاجة فاطمة تحاول إقناع الحاج خيري مستغلة سمعة المرحوم الحاج (سيد إمام) وسعاد تقسم حتى الرمق الأخير أنها لن تكون سوى لعبد البصير.

٥- (الأحد ثالث أيام عيد الفطر المبارك)

ليلة زفاف العمدة – مخيمر – على صاحبة الـ١٦ عامًا والسيدة الأولى للقرية سعاد.

obeikan.com

(المال ينتصر في النهاية) ولكن العمدة الآن يريد شيئًا أكبر ولن يتوقف حتى يُجَرِّدَ عبد البصير من كل شيء.

●●●

- خير يا حضرة العمدة؟
- ما أخبارك وأخبار العائلة؟
- بخير الحمد لله يا حضرة العمدة، أرجو الدخول في صلب الموضوع لأتفرغ لعملي.

أخذ العمدة يلقي متتابعة بين عبد البصير والأرض التي اكتست بلون القمح الذهبي، والنيل الذي يحتضن الأرض، وأشعة الشمس المتسربة من سماء زرقاء اللون تضيف رونقًا جميلا في نفس العمدة. الذي كان ينظر باستعلاء لعبد البصير؛ مستنكرًا عليه تلك الأرض التي تُشعرك للحظات أنها سقطت من أرض الجنة، وأنَّ عبد البصير اشتراها من رضوان حارس الجنة، والتي أضفت على عبد البصير نوعًا من الحزن؛ فسقوط الشمس مع لون القمح يُذكره بسعاد صاحبة الشعر الأصفر، والتي أيضًا كان لا يرضى لها أن تتزوج العمدة صاحب الأفخاذ المترهلة.

- اسمع يا عبد البصير لقد ضاعفتُ لك ثمن الأرض عن

آخر مرة، آه، بالمناسبة ما هو آخر رقم توقفنا عنده؟

- ٢٥٠٠ جنيه يا حضرة العمدة.

- لا يا سيدي أنا سوف أدفع لك ٦٠٠٠ جنيه ما رأيك؟

- أخبرتك يا عمدة مرة تلو الأخرى- ولكن لا بأس بثالثة - أنَّ تلك الأرض ليست للبيع، ماذا أفعل لكي تصدق؟

- لا تتسرع في ردك يا عبد البصير؛ الكلام ليس بهذه الطريقة.

- أخبرتك مرارًا يا عمدة أنَّ تلك الأرض ملك أبي وجدي، وجد جدي، ولن أفرط بها حتى تصل لأحفادي وهذه وصية أبي ورأي أمي.

- عبد البصير أنت شاب والحياة أمامك كبيرة، أنت تعلمت القراءة والكتابة، وتعلمت اللغة الإنجليزية بسهولة من الاختلاط بالإنجليز والزوار؛ فلتأخذ

بنصيحتي وخذ المال وقم بالسفر إلى القاهرة؛ ستجد هناك فرصًا كثيرة، والمال الذي معك سيحقق لك ما يجب أن تكون فيه.

يبدو أنَّ هذا الكلام قد أزعج عبد البصير - الذي لا يريد ولا ينوي حتى التخلي عن أرضه والهروب من المشكلة- فرد عليه بصوت حازم وقوي:

– أتريد أن تطردني من بلدي يا عمدة؟ أنا لست جبانًا لأفعل هذا.

وفجأة تحول العمدة من ثعلب يمكر إلى أسد يزأر:

– اسمعني جيدًا لن أطيل معك الحديث؛ هذه الأرض ستصبح ملكي، بالأدب ستصبح ملكي بالاستبداد ستصبح ملكي، أعطيك فرصة أخيرة لتبيع بكرامتك وليس رَغْمًا عنك.

فيرد عبد البصير على هذا الكلام ويكاد يتمالك نفسه ويسيطر على يده؛ حتى لا تضرب كيس اللحم هذا بابتسامة باردة:

– شَرَّفت يا عمدة...!

رحل العمدة ووجهه يمتلئ بعلامات الغضب والوعيد، وذهب إلى عربته ليرفعه رجاله على جواد مسكين يخشى من انقسام ظهره؛ من تلك الحمولة من اللحم المترهل.

يرحل العمدة وكأنه فرعون مصري يتم حمله على المحفة بواسطة عشرات من الرجال الأشداء، يفكر فيما سيفعله للانتقام من عبد البصير.

●●●

obeikan.com

في نفس المدينة وفي نفس القرية يُوجد مبنى منخفض مكون من طابقين، مبنى فقير البنيان من الخارج تملؤه الشروخ، كان هذا قسم شرطة القرية، في داخله سجون قذرة لا تليق حتى ب لِصٍّ ملابس. وكان به مكتب للحظات تعتقد أنك دخلت غرفة في فندق (هيلتون) كان مكونًا من راديو ومقاعد فخمة، وهاتف وبعض النجف الكريستال، لم يكن هذا سوى مكتب مأمور القسم.

- تحت أمر سيادتك وأرجو منك أن تشكر الباشا (الكبير) بالنيابة عني.

ويدخل العسكري باب الغرفة بسرعة، وكان هناك من يطارده ويقول للمأمور بصوت يُشبه صوت العبيد المرغمين على العمل:

- حضرة العمدة مخيمر في الخارج ويطلب إذن الدخول.

- أدخله فورًا.

يدخل العمدة إلى المكتب ويرحب هو بالمأمور بكل حرارة وشوق وليس العكس! فيرد المأمور الترحيب ويأمر العسكري بالخروج، وألا يسمح لأي شخص بالدخول إليهم، فيخرج العسكري ويغلق الباب وراءه تاركًا إياهم يخططون ويكيدون.

- ماذا هناك يا عمدة؟ إنَّ زوجتي قد اتصلت بي منذ ساعة، وأخبرتني بما أرسلته للبيت من فاكهة وخضراوات ولحوم، إنَّ هذا لكثير يا عمدة.

- إنَّ هذه هدية وكما يقولون «النبي قبل الهدية»

- حسنًا هدية مقبولة.

- هل الهانم زوجة سعادتك قد أُعْجِبَت بهذه الأشياء؟

يضحك المأمور: أجل يا عمدة وتشكرك كثيرًا.

- لا شكر على واجب يا حضرة المأمور هذا من بعض ما عندكم.

- أخبرني ما هو الشيء الخطير الذي تريدني من أجله، آه صحيح ماذا تريد أن تشرب؟

- شكرًا لا أريد شيئًا، ولكن دعنا نكمل موضوعنا.

- أرجوك لا تخبرني أنه موضوع أرض الولد عبد البصير.

- وهل يوجد غيره يا جناب المأمور؟

- لقد مللت الحديث عنه، ألم أخبرك أن تضاعف له الثمن وسيوافق؟

- نعم لقد فعلت هذا ولكنه عنيد مثل أبيه.

- لا تقلق يا عمدة هذا الموضوع أصبح الآن بين يدي، وسوف أنهي الموضوع بطريقتي الخاصة.

- إذا فعلت هذا حقًّا يا جناب المأمور؛ أعدك أنني سأنفذ كل طلباتك، إنه ليس بموضوع الأرض أكثر من اشتياقي لرؤية عبد البصير مذلولا أمامي.

- سأنهي لك ذلك الموضوع ومن ثم نتفق.

- أي شيء تريده سأفعله حتى إن كنت تريد مشاركتي، الأرض ليس لدي مانع.

– إذن سأجعله يندم على اليوم الذي ولدته أمه فيه، دع فقط كأهداف إليه يحدث أولاً، وبعدها تنزعه من أفكارك إلى الأبد.

●●●

حتى عاجله نفس الشخصين من ظهره مرة أخري.

- أدعو الله أن تكون أفضل حالاً الآن.

- لقد قلقنا عليك ومن وحدتك ولكننا تركناك على راحتك.

- أشكركم على ما فعلتموه من أجلي ولم يسعني شكركم ذلك اليوم.

obeikan.com

- انسَ ما حدث يا بُنَيّ؛ لن تغير شيئًا أمر به الله، عَرِّفنا بنفسك.

- ونعم بالله...أنا عبد البصير السيد إمام من الأقصر، ٢١ عامًا.

- معك أبو الحسن مسعود، مهندس زراعي ومعلم بالأزهر من مدينة ميت غمر، ٣٨ عامًا.

الشيخ أبو الحسن - أو كما هو لقبه - رجل وقور به كل علامات السماحة، تلك الذقن السوداء التي تتخللها بعض الشعيرات البيضاء خلسة، ممتلئ نوعًا ما، أبيض اللون، تشعر بأنَّ النور يشع منه.

- وأنا عباس درويش صياد من الإسكندرية، وعمري ٢٥ عامًا،

أمَّا عباس فهو يُعتبر نقيض الشيخ أبي الحسن؛ فقد كان كارثة بكل المقاييس، هو شاب يحظى بخفة دم أهل الإسكندرية، لا يقف ثابتًا أبدًا، لا بُدَّ أن يحرك جسده أثناء الحديث، خمري اللون نحيف جدًّا، شعره طويل، وعلى عكس الشيخ يبدو أنه لا يعرف شكل المسجد من الداخل.

ولكن كيف لتلك الشخصيتين أن تنشأ بينهما علاقة صداقة، أو حتى زمالة باختلاف كبير، ولكنه عندما يكون الإنسان في أزمة لا يعرف ماذا يفعل، يبدو أنهم يعانون مثلي.

●●●

أخذنا نتقلب المواضيع والأحاديث كأمواج البحر، لم أشأ أن أسألهم عن الشيء الذي لم يشاءوا أن يسألوني عنه، توطدت العلاقة بيننا؛ صرنا إخوة فلم يبقى لنا الآن سوى بعضنا البعض، نتبادل الأحاديث حتى يمر الوقت وننسى ما نحن به.

- تعرف يا شيخ أنت وعبد البصير أنا متفائل جدًّا.
- لماذا؟
- أولاً لأننا غادرنا تلك البلد التي لا فائدة منها؛ فالشعب يزرع والملك يحصد وحده، ولكننا سنسافر إلى أوروبا حيث سنعمل في المصانع أو الحقول، ونأخذ مالاً كثيراً ونرى الفتيات الأوروبيات، لم ترهم أنت يا شيخنا، تظنهم حور عين في بعثة على الأرض .
- بدلاً من أن تفكر في النساء فَكِّر في الله حتى يُخْرِجُنَا مما نحن فيه.

- ولكن لديَّ سؤال، ما كل هؤلاء البشر الذين تجمعوا معنا، أرى أنهم ليسوا من بلد واحد.

أجل يا بُنَيّ إنهم من كل مستعمرات بريطانيا؛ من مصر والسودان والهند والصين إلى آخر مستعمراتها، تجمعنا جميعًا كالخرفان لنكون عبيدًا لهم، الجميع هنا يعيش على أمل «عباس الأحمق» يظنون أنهم سيذهبون إلى هناك للعمل في مزارع الفاكهة أو مصانع المعدات مكان الإنجليز الذين يحاربون، ولكن أخشى من أنَّ هذا لن يحدث.

سرت رعشة هزت جسد الاثنين، مُرَدِّدِينَ: ولماذا؟

لم يُرِدْ الشيخ إقلاقهم أكثر من ذلك، لم يُرِدْ مصارحتهم بما يجول في خاطره، إلا أن أخبرهم بأنه يهذي من التعب ويريد الراحة قليلاً. نام الشيخ ونام عباس، بينما ظل عبد البصير يفكر ويتأمل في الوجوه التي أمامه، دمت في عيونهم كل ما يَشعر به من وهته وخوف وقلق من مصير مجهول الملامح، بالتأكيد جميعهم لديهم عائلات وأهل، منهم من يعلم مكانهم ومنهم كعبد البصير لا تعرف عائلته ما حدث له حقًّا. ولكن خاطب عبد البصير نفسه بأنه إذا استمر في هواجسه فسيؤذي نفسه، وكان عليه أن يبقى على حياته وأن يعود سالمًا، ليس لنفسه ولكن ليحمي أهله وينتقم،

نعم سينتقم من العمدة والمأمور. وتأكد بأنه لو بقي له عُمْرٌ فلن يُبْقِي على عُمْرِ العمدة والمأمور، تَمَنَّى لو يختفي كل الناس من على السفينة - عدا أصدقائه -ويبحر بها في النيل حتى قريته، ويسدد مدافعها القوية تجاه بيت العمدة وقسم المأمور حتى لا يُبْقِي جدارًا قائمًا ولكنها لم تكن سوى أحلام.

استمرت رحلة السفينة حتى لاحت أمامها فرنسا، يبدوا أنهم اقتربوا، خصت علم البعض بأنَّ السفينة لها هدف إمَّا حصن أبانميل المنيع ببلجيكا، وإمَّا مدينة النور، باريس الهدف يقترب، ولكن لم يتوقع كل من على السفينة أن يكونوا هم هدف لعدو أخر.

مازالت السفينة تبحر ومازال الأسرى يعلمون، ومازال الجنود يمرحون، ومازال عبد البصير غارقًا في عالمه الخاص، مازال كل شيء كما هو والحياة على السفينة تسير طبيعيًّا، حتى جاء صوت شقَّ صمت السماء، صوت مفاجئ كصوت رعد في يوم صيف. سريعًا ما ارتفع نظر الجميع للسماء البعيدة ليجدوها ذئابًا تعوي نحو قطيعهم، ولم تكن أي ذئاب؛ كانت من فصيلة (استوكا) فخر الطيران الألماني، ماذا؟ ألماني يعني محور، يعني هتلر تساوي أعداء. ما أن أدرك الجميع هذا حتى دبت حركة لا مثيل لها على ظهر السفينة، الجنود بدأت تجري وتصعد السلالم، اتخذ الجميع

مواقعهم بدأت البزايين بإرسال التحية للطائرات، بدأت المدافع الضخمة تضرب لهم الأذن، وأمسك كل جندي برَشَّاشِه ومدفعه، وبدأ التصويب تجاه الطائرات، أُجْبِرَ البعض على الاختباء وأُجْبِرَ البعض على المقاومة.

ولكن عبد البصير ورفاقه بالنهاية السريعة أسرعوا لظهر السفينة؛ حيث قوارب النجاة، بدءوا في قطع حبال أحدهم بسكين يستخدمونه في الطبخ، كانت استوكا اقتربت بالشكل الكافي (ربي) ما هذا! سرب طائرات يقدر بـ ٧ طائرات شكلهم مخيف، يشبهون عربات تطير على ارتفاع قريب. استمرت المدافع والمقاومة، شعر الجنود بأنها طير أبابيل وأنَّ الفيل البحري الذي يُقلِهُّم سوف يُسْحَق، وسرعان ما بدأت الطائرات بإنزال أحجار جهنم؛ قذائف تزن الطن من المتفجرات، فُتِحَت أبواب الطائرات، بدأت في إلقاء هدايا (سانتا كلور) لكن بدون ظباء طائرة. لم تُصِبْ في البداية، ولكن صوتها المخيف وسقوطها في الماء مسببًا إنفجارات مائية تُشْبِه لحد كبير تسونامي صغيرًا مُبَعْثِرًا الماء على ظهر السفينة، التي استمات الجنود في المقاومة حتى بدأت أول طائرات العدو تهوي – إلى أسفل – كصيد حمامة ببندقية رش. سرعان ما أرسل الجنود الاستغاثة، لم يجدوا أقرب من موانئ فرنسا –البحرية لإرسال الاستغاثة – التي هبت لإنقاذ حلفاءها؛ وعلى الفور تحركت

طائرات حربية وجنود، وتحركت قطعتان بحريتان، يبدو أنَّ الحظ الآن يخدم الإنجليز. لكن يبدو أنَّ أحد الطيارين الألمان كان متفوقًا في درس النَّشَان؛ بدأ في إنزال حمولته من الصواريخ، والتي أصابت مقدمة السفينة والمدافع، وبدأت النار تشتعل بسرعة على ظهر السفينة، واحترق بعض الجنود، استمرت المقاومة واستمر إنزال العبوات الناسفة، تداعت السفينة وبدأت تغوص في المياه.. لم يجد الجنود والأسرى مفرًّا سوى إلقاء أنفسهم في المياه، حتى المصابين والجرحى، بدأت الجثث تطفو فوق سطح الماء والدم يغطي سطح الماء.

أخيرًا انتهى الرفاق من فك القارب، وأنزلوه للماء واستلقوا عليه، وأخيرًا رحلت (ستوكا) بعد أن رأت فريستها تصيح الآن فريسة للماء وأسماك القرش، لم يبقَ في السفينة سوى حطام، انتشرت أشلاء الجنود والأفراد على سطح الماء، بينما يحاول المئات السباحة للنجاة بحياتهم. المشكلة أنه لا يوجد أرض قريبة؛ فالماء يحيط من كل جانب، كذلك الموت، كانت الشمس قد أوشكت على الرحيل، دقائق وسيحل الظلام، ابتعدنا بشكل كاف عن حطام السفينة وعن صيحات وصرخات الجنود والأسرى العالقون في الماء. ولكن يبدو أنَّ الرحلة لم تنته بعد؛ بدأ صوت بعيد بالاقتراب، صوت كصوت ذبابة صغيرة، سرعان ما أصبح صوت

تنين يقترب، كان سربًا آخر من الطائرات أكبر حجمًا يقترب، هل جاءت ألمانيا لتقضي على البقية الباقية من الجنود أم ماذا؟

لحظة إنها طائرات حلفاء، يبدو أنها فرنسية، ألا يمكن الهروب من هذا الكابوس، هناك أيضًا سفينتان أصغر حجمًا يقتربان، لقد جاءا وحملانا فرح الجميع وركبوا لكن أنا تمنيت الموت.

اليوم السابع من يناير عام ١٩٤٠ يصل عبد البصير ورفاقه إلى موقع غير موقعهم الأساسي، هم الآن على جزيرة (جيرسي) واحدة من جزر شمال غرب فرنسا الحصينة، معتقل لا يمكن الهروب، تتكون من أرض وبعض الأشجار ومعسكر ضخم، وكان به العديد من الإنشاءات الغير مكتملة. يبدو أنه موقع مثالي للحلفاء وأيضًا منعزل، شعر عبد البصير بأنَّ هذا المنفى سيكون قبره الكبير، وأنه لن يغادر تلك الأرض حتى قيام الساعة؛ فالمكان هنا مثالي شاحب مخيف، حتى السماء فوقه حمراء اللون. استمر عبد البصير وأصدقاؤه حوالي يومين يتعافون مما أصابهم وأصاب زملاءهم، لقد عاد ما يقرب من نصف من كانوا على متن السفينة؛ فعاد ستون بالمائة من الجنود، وحوالي أربعين بالمائة من الأسرى. لقد كان الحلفاء رحماء حقًّا؛ لقد اهتموا بنقل الجنود أمَّا الأسرى فكان دورهم في النهاية بعد الجنود، وقد عاش الأسرى الذين

تحملوا فقط (البقاء للأقوى) أمَّا الضعفاء والمصابون فكانت المياه أولى بهم. حصلنا على معاملة جيدة في خلال اليومين، وحصلنا على الطعام، لم يكن قائد المعسكر موجودًا؛ كان في لقاء مع القادة وسيعود في الغد، لم نره بعد، لم يحدثنا أحد عنه، فمع المعاملة الجيدة التي يعاملنا بها الجنود كانوا أيضًا متحفظين تجاهنا. كانت نظراتهم لا تشوب من العنصرية والتكبر، أتذكر تلك النظرات، نعم كانت نظرات العمدة الذي ألقاني هنا، ولكن لم أرَ شيئًا سيئًا منهم بعد، رغم أنهم لم يكونوا من جنسية واحدة، كانوا من إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا، ولكنهم كانوا تحت قيادة واحدة. وكانوا ينهمون بعضهم البعض، الجميع يعمل هنا، وكأنها خلية نحل، لكن شغلي - أكثر - الإنشاءات الغير مكتملة؛ لماذا لم تكتمل؟ وهل لوجودنا علاقة بها؟ بدأت الأسئلة تتراكم حتى صباح اليوم التالي.

الصمت يلف المعسكر، لا توجد عيون مستيقظة سوى الجنود المراقبين، ولكن كل هذا تغير مع تمام السادسة صباحًا؛ ضُرِبَت أجراس الإنذار، المعسكر بأكمله كشمس تسطع فجرًا، قام جميع الجنود مفزوعين يرتدون ملابسهم، استيقظ الأسرى غير مدركين ما يحدث. وبدون سابق إنذار بدأ الجنود يعطونا ملابسًا جديدة، ويأمرونا بسرعة الارتداء والتجمع في الساحة بالخارج، زاد

الاندهاش، ولكن سرعان ما ارتدينا ووقفنا في الساعة في صفوف منتظمة، ساد النظام المعسكر بينما فُتِحَت أبوابه لتدخل سيارة حربية - مكشوفة أمريكية الصنع -عليها سائق وخلفه رجل عسكري يرتدي نظارة سوداء بشاربه الأصفر الضخم، وجسده العملاق بعيون جاحظة من أسفل النظارة، كل ملامحه تشير بأنه صنع في إنجلترا؛ لم يكن سوى الجنرال (ريتشارد).

توقفت السيارة وارتجل القائد من سيارته، نظر إلينا محملقًا لدقائق، كانت نظراته تشبه الأشعة المسلطة عليك، بإمكانه رؤية عظامك خلف جسدك، تخشى أن تراه في أحلامك وليس وجهًا لوجه.

بعد أن انتهى بدأ الحديث:

- أُحَيِّيكم بأنكم مازلتم على قيد الحياة، أعلم بأنَّ جزيرتنا اللطيفة لم تكن وجهتكم، ولكن حدث ما حدث أنتم الآن ضيوف لدينا، ولكن لا يجب على الضيف أن يجلس ويأكل ولا يفعل شيئًا؛ لذلك ستساعدوننا قليلاً في إنهاء بعض الأعمال - لدينا - على سبيل الصداقة. اعملوا جيدًا ستكونوا سعداء، وسأبعد أي أذى عنكم، من لن يعمل جيدًا فصدقوني لن يريد أن يعرف ما سيحدث له، لا تقلقوا؛ لن نتعبكم، لنقل ١٠ ساعات في اليوم كافية.

بدأت علامات التوتر والضجر تظهر على وجوه نزلاء المعسكر الخمس نجوم.

– نعم نعم، أعرف ما يجول بداخلكم، عشر ساعات قليل؛ إذن لنجعلها ١٢ ساعة قسمة العدل، نصف اليوم لنا ونصف اليوم لكم، أتمنَّى أن تقضوا وقتًا مفيدًا معنا، ولذلك سيبدأ العمل من اليوم، وأول أعمالكم ستبنون مطارًا صغيرًا لهبوط الطائرات في الجانب الشرقي. ونريد أيضًا بناء مخزن كبير تحت الأرض لتخزين السلاح، سيكون أول مهامكم، ولا نحب التأخر، نريد الانتهاء منه في أسرع وقت ولا داعي لأحذركم مرة أخرى.

الآن انتهى الحلم الصغير وبدأ الكابوس المروع، لم تكن معاملتهم الجيدة خلال اليومين سوى تمهيد لما هو أسوأ؛ هذا الوحش الكاسر يأمرنا بالعمل الشاق ويتوعدنا بالعذاب إذا أخطأنا، الآن فقط أستطيع القول بأنَّ رحلة العودة قد بدأت من هنا، ولن تنتهي حتى يخطف الموت أجسادًا مجهزة ومعذبة بألم لا يُطاق.

بدأ العمل الشاق، أصبحنا نعمل من السابعة صباحًا حتى السابعة مساءً، اليوم بأكمله نعمل، لا راحة، لا توقف إلا لدقائق معدودة للطعام الذي لم يكن يُشْتَهَى إطلاقًا، كان بعض الماء القديم

والخبز، بدأ الجنود يبدون كجلادين؛ أصبحوا مسلحين بالعصا والكرباج. لم يكد أحد يتوقف لأخذ أنفاسه واستعادة نشاطه حتى يهبوا عليه كالكلاب الجائعة؛ حتى يعود للعمل وهو يعرق وينزف، الوضع يشتد سوءًا والبرد أصبح قارسًا، درجة الحرارة قد تصل لـ ٣° أصبحنا لا نخلو من المطر والثلج الذي يُزيد الوضع سوءًا، بعض الأفارقة لم يستحملوا هذا الجو أخذوا يسقطون واحد تلو الآخر. وما كان من الجنود سوى فتح حفرة صغيرة ليداروهم بها، والبعض الآخر يستسهل ويقوم بإلقائهم في البحر، المرض يشتد علينا، نحلت أجسامنا، وكان الوضع أكثر سوءًا عند الشيخ أبو الحسن الذي أعاقه السن عن عمل الشباب الصغير .

استمر هذا الوضع السيئ قُرَابَة الشهر، نعمل مثل الثيران ولكن حتى الطبيعة تآمرت علينا؛ فكان المطر والثلج يُفسد كل ما نصنعه، هل لهذا الكابوس من نهاية، أجسادنا بدأت تتصلب، لم نعد نشعر بأعضاء أجسادنا. لا نشعر بها إلا عندما يتوقف أحدنا عن العمل فيقوم أحد الجنود بإذاقتك طعم كرباجه الساخن في برد أوروبا القارص؛ لتشعر بأنَّ أعضاء جسدك تريد الانفصال؛ لتشعر كل واحدة بالألم بعيدًا عن الأخرى. إلى متى سيستمر هذا العذاب، إذا كان الموت قريبًا فليأتي؛ إذن فعذاب الموت يستمر لدقائق كما تسكن الروح والجسد، أما ما نحن فيه فهو عذاب

لا ينقطع، عذاب الجسد الجريح وعذاب الروح التي فارقت من تحب، وها نحن نستعد لمقابلة جديدة مع المجنون (ريتشارد).

- سمعتُ أنكم غاضبون وتتذمرون، تقولون بأنَّ العمل قد زاد عليكم وأنكم لا تستطيعون أن تكملوا في البرد، هذا حقكم وحق أصدقائكم الذين رحلوا، لكنكم لم تفهموا بعد ماذا تفعلون؛ أنتم تخدمون قوى الحلفاء أكبر قوى على الأرض، ونحارب عدوًا شرسًا لا يرتاح. ماذا كنتم تتوقعون أن تفعلوا، كنا سنزرع بعض العنب ونهرسه، إنَّ الحرب أكبر من ذلك، ومن أجل هذا أنا هنا لأحقق لكم ما تتمنون، لقد طلبتُ من القادة أن يصرفوا لكم ملابس ثقيلة ضد البرد، وأن تزيد حصص الطعام.

بدأت الابتسامة والفرحة تعتلي شفاه الأسرى قبل أن ينهي ريتشارد: ولكنكم ستعملون من الآن بدلاً من ١٢ ساعة؛ ستعلمون ١٦ ساعة، وهنا طفح كيل الشيخ أبو الحسن.

- هذا كثير، لقد تعبنا وجسدي لا يتحمل هذا العمل الشاق الآن، قليل من الرحمة نحن لسنا عبيدًا.

هزَّت كلمات الشيخ أرجاء المعسكر، صمت الجميع كأنَّ على رءوسهم الطير، تحرك الجنرال في ثقة وهدوء تام تجاه الشيخ، انخلع قلب عبد البصير وعباس على صديقهم الذي سيفتك به

هذا الأسد الإنجليزي، وكان الشيخ لا يأنى لما سيحدث؛ لقد فاض به التعب والإرهاق، وأيقن بأنه لن يعود وستكون نهايته هنا.

بهدوء تام قال القائد:

– أنت محق، يبدو على ذقنك وهيئتك أنك رجل وقور وتعرف الله جيدًا، إنَّ ما نفعله هنا ظلم، ولكن اجعل ربك يوقف عنك – وعن زملائك – الظلم وحتى ينقذك ربك فالظلم مستمر، وصحيح؛ قبل أن أرحل الجميع هنا ليعمل ١٥ ساعة فقط، أمَّا أنت ستعمل ٢٠ ساعة بمفردك، وحرس خاص من أجلك.

لم يصدق أحد ما قيل، لقد حَكَمَ على الشيخ بالأشغال الشاقة المؤبدة، لا بل ألعن؛ لقد حَكَمَ عليه بالإعدام البطيء.

عاد العمل كما كان، عادت زيادة الملابس والطعام وأيضًا ساعات العمل، البرد يشتد قسوة؛ لقد وصلت درجات الحرارة إلى ما دون الصفر، استمرينا أيامًا على هذا العذاب ولكن لم أكن أخشى على نفسي، بل كان كل ما يقلقني هو الشيخ. لقد زاد عليه العمل، كل ليلة تنتهي نعود للمعسكرات ويستمر هو، وهو لا يقوى على حمل قاس، ومعه جنديان – يؤنسانه في وحدته – يلعنان الساعة التي تحدث بها مع الجنرال؛ حتى حرمهم من ساعات نوم إضافية. من أجل الفتى العاصي يُخرجان غضبهم على الشيخ،

ويضربانه على أقل شيء، لم يكن يأتيني نوم حتى يعود منهكًا، لا يكاد ينام أربع ساعات حتى يعود للعذاب. يدعو الله والدموع تتهمر أن يفك كربه، نحل جسده، ازداد ضعفًا، حتى اليوم الذي عدنا فيه من العمل، ورأيت عباس مهرولاً تجاهي: عبد البصير لقد سقط الشيخ في العمل ونقلوه لعيادة المعسكر، ويريد أن يراني أنا وأنت.

عيادة المعسكر تصلح بشكل كبير أن تكون عيادة بيطرية وليست لبشر وجنود، وطبعًا الإمكانيات ضعيفة لا تختلف كثيرًا عن المستشفيات الحكومية بمصر، أُلْقِيَ الشيخ على أحد أَسِرَّةِ المرضى، ويبدوا أنَّ دماءً كانت تسيل من رأسه، من الواضح أنَّ الجنود المراقبين قد زادوا في جرعة الاهتمام اليوم. يكاد لا ينظر أمامه، شحب وجهه بطريقة مخيفة في الوقت ذاته، وصل عبد البصير وعباس، كانوا متوقعين أن يحدث هذا من كثرة العمل عليه وخاصة بعد الترقية التي منحها له الجنرال، بسرعة أحاطوا بسريره (ربي) إنه حتى لم يشعر بوجودهم حتى الآن، الوضع يزداد سوءًا؛ أنفاسه تبتعد عن بعضها بمسافة ميل تقريبًا، الظلمة تتكاثف وأخيرًا بدأ الشيخ بالتحدث.

- الإنسان غريب؛ يظل حياته يعيش سواء كان سعيدًا أو تعيسًا، لا يرغب بالموت، حتى الجنة يريدها بلا موت،

ولكن عندما تقترب ساعة النهاية يعلم أنه كان مخطئًا، وأنَّ الوجود بجانب الله أكثر راحة وأسهل كثيرًا.

- بالله عليك استرح الآن، ولا تُجهد نفسك بالكلام.

- لن يغير قضاء الله دعوني أقل ما أريد، عباس أنت شاب طيب ولكنك طائش وتجري وراء النساء، استقم في حياتك، تَقَرَّب إلى الله؛ حتى يُخرجك من محنتك، أريد وأنا في دار الحق أن أعلم أنك أصبحت أفضل.

- أمرك يا شيخنا، ولم يتمالك عباس نفسه من البكاء المكتوم.

- عبد البصير ولدي العزيز لقد رأيت حلمًا لك - أراك وقد اجتمعت عليك الجروح والهموم؛ سيرسل لك الله من يُخرجك - أراك على ظهر مركب وتعود على مصر، أنت طيب سيخرجك الله مما أنت فيه، لا تيأس ولا تدع السواد يجتاح قلبك، أوصيك بعائلتي وبنفسك.

- أعدك، أنا أعدك، لكن شيخ، يا شيخ لِمَ لا ترد؛ لقد توقف القلب لم أكن أعلم البكاء، بكيتُ على الشيخ أكثر مما بكيتُ على أبي، أنا صعيدي وعليَّ أخذ الثأر.

في اليوم التالي توسلنا - للقائد عديم الرحمة - أن يترك لنا جثة الشيخ ندفنه كما في الشريعة الإسلامية، بصعوبة وافق، غَسَّلْنَاه وكَفنَّاه في غطاء سريره، وساعدنا بعض أصدقائنا المسلمين، حملناه لموقع قرب البحر وحددنا موقع الشرق ودفناه تجاه القبلة. شرعتُ في الدعاء بينما حمل عباس لوحًا، وكتب «هنا يرقد المغفور له بإذن الله الشيخ فلان» حتى لا يُدنس أحد مكان القبر، عدنا للعمل تَغَيَّرَ كل شيء، لم نعد كما كنا؛ أصبحنا أكثر قسوة وغلظة، تمنَّى عباس لو يحمل رشاشًا ليفرغه في ريتشارد، أصبحتُ أنتظر اليوم الذي سأنتقم فيه وآخذ ثأر صديقي. أصبحتُ أعمل بلا مبالاة، تجمد لديَّ الإحساس، صرتُ يوميًّا أجمع الآلاَف من الأفكار لأحقق الانتقام، أصبحت أعرف عن ريتشارد أكثر ما يعرف عن نفسه، بينما كان عباس - في الوقت ذاته - يخطط لشيء آخر أكثر جنونًا.

يومًا آخر من انتهاء العمل، كان كل يوم يمرُّ ونحن أحياء يُعَدُّ هذا إنجازًا كبيرًا، الوضع يسوء أكثر، لم يكن الشيخ آخر الضحايا مثلما لم يكن أولهم، وبمجرد انتهاء العمل عدنا لمعسكرات النوم، لم نكد نخلع ملابسنا من البرودة وذهبت إلى سريري من أجل النوم، ولكني وجدتُ أمامي عباس يريد أن يتحدث.

- عبد البصير هل بإمكاننا التحدث قليلاً؟

- عباس ألا ترى أنني متعب بما فيه الكفاية.

- أريدك في أمر مهم لا يتأخر.

- تفضل، أفصح عما لديك.

- لقد وضعتُ خطة لنهرب من هنا.

- هههههههه أنا في مزاج سيئ ولكنك أضحكتني.

- ما هو الطريف فيما أخبرتك به! هل ستظلون هنا حتى نلقى حتفنا - مثل ما حدث مع الشيخ - نريد العودة لبلادنا.

اختفت الابتسامة وعاد التجهم على وجهي مرة أخرى.

- استيقظ يا عباس، لا يوجد مفر مما نحن فيه؛ نحن على جزيرة مهجورة لا يوجد عليها سوى مئات الجنود المسلحين، وبعض المدافع الثقيلة كيف ستهرب من هنا ؟

- لقد وجدتُ الخطة بعد أربعة أيام، ستأتي القطعة البحرية التي تحمل الإمدادات للمعسكر، نحن سنذهب لإنزال الحمولة، بينما نحن نقوم بذلك سنختبئ في أحد

obeikan.com

قـوارب النجـاة حتـى أقـرب مينـاء، ننزلهـا ونبتعـد.

- لقد فقدت عقلك تمامًا.
- صدقني، سنستطيع الهرب، وإن متنا سنرتاح من عذابنا.
- أنا لستُ معك.
- كما تريد يا صديقي، لكن عندما أخرج من هنا ستتمنَّى لو أنك نجوت بحياتك معي، أو حتى متَّ معي.

توترت العلاقة بيني وبين عباس الذي فَضَّلَ الابتعاد عَنِّي، حاولت إرجاعه عن قراره، ولكن بلا فائدة يبدو أنَّ موت الشيخ أَثَّرَ على عقله تمامًا، والإنجليز ليسوا بتلك السهولة للهروب منهم، لن أبرح مكاني حتى أنتقم من كبيرهم على ما فعله بصديقي. وفي صباح اليوم الرابع وصلت باخرة حربية تحمل من خيرات اللّه؛ ذخيرة وسلاح وطعام ،أُرْسِلَ الأمر للجنود والعمال بالبدء في إنزال حمولة السفينة، كان لديَّ خطة أنفذها لأحقق الانتقام ولكنها ليست الآن. بينما صديقي المتسرع قد بدأ – فعلاً – في تنفيذ خطته بعد إنزال آخر حمولة له، صعد على السفينة بسرعة ومهارة، صعد السفينة وبدأ التحرك بعيدًا عن موقع العمل حتى وجد حالته، ولكنه نسي أن يُخفي آثار أقدامه التي تتبعها أحد جنود السفينة؛ حتى وصل إليه ولكن عباس هرب. أخذ يجري

على السفينة وأصبح يطارده أربعة، وأُمِرَ العمال بالتوقف عن صعود السفينة حتى ينتهوا، شعرت بالقلق هل كَشَفَ عباس نفسه، وبينما يهرب عباس وصل لمؤخرة السفينة، حتى وصل أحد الجنود وأمر عباس بالتوقف، ولكنه باغته وضربه وأخذ منه السلاح. أخي عباس يقترب من النصر ، ولكن ما لبث أن أخذ السلاح حتى اقترب جنديان، وما كاد من عباس أن يطلق النار حتى سبقه الاثنان، لقد أخمد الاثنان نيرانهم بصديقي؛ سقط عباس، وشعرت بما حدث؛ ها قد رحل آخر أصدقائي، «إنجلترا إنَّ حسابك يشتدُّ معي، ولن يكون الانتقام رحيمًا، استقرت رصاصتان، واحدة بالقلب والأخرى بمعدة صديقي. سرعان ما أسلم الروح لخالقها باللحظة، لقد انتهى عذابه ولكن ما حدث بعد ذلك أسوأ؛ لم يرحموا حتى جثة القتيل البطل؛ لقد حملوها لساحة المعسكر وألقوها على الأرض أمامنا جميعًا. وصل ريتشارد بابتسامة تمر حصل على فريسة بعد صيام ثلاثة أيام، وأخذ يُحَذِّرُ كل من يحاول الهرب، وأنَّ هذه ستكون نهايته، ليس ذلك فقط؛ بل وضع قدمه وداس صديقه؛ تَمَزَّقَ قلب عبد البصير بين ضلوعه، حاول أن يفعل شيئًا. لم يكتفِ ريتشارد بهذا الحد؛ حتى أمر بتعليق جثته أمام بوابة المعسكر؛ ليكون عِبْرَةً لمن تسول له نفسه الوقوف أمام عظمة بريطانيا والحلفاء، ولكن بعد محاولة

عدة أيام معه، وبعد خروج رائحة المتوفي؛ سمع لهم بمدادة الأمانة؛ ليجلس في حفرة صغيرة بجانب صديقه الشيخ. في الوقت ذاته أصبحت خطة عبد البصير - في الانتقام - جاهزة وحصل على ما يريد، لا ينقصه سوى التوقيت المناسب، في الوقت ذاته كان مسار الحرب يأخذ شكلاً جديدًا.

الآن، هتلر مازال يرعب الحلفاء بتقدمه السريع، استطاع في وقت قصير احتلال بولندا أو تشكوسكوفكيا، والنرويج، والدنمارك، وها هو الآن يخطط لاحتلال جيرانه، قرر هتلر في اليوم العاشر من مارس ١٩٤٠ وفي تمام ٥,٣٠ دقيقة صباحًا عمل غزو كبير لجيرانه الحلفاء: بلجيكا وهولندا وفرنسا، وبجيش يزيد عن ٢ مليون غَازٍ بدأت الحرب. قام هتلر بقَصْفٍ وسَحْقٍ بلجيكا وهولندا، سيطر على المعاقل والحصون، استطاع فتح حصن أبانميل والذي كان - من المفترض - سِجْن عبد البصير الأول، لم تكن هناك ذرة رحمة، ضَرَبَ ميناء نوتردام في هولندا بعد استلامه، هتلر لا يمزح؛ استمرت عملياته؛ دخل بالطيران وجنستوكا المُفضلة. استخدم دباباته العملاقة (بانزر) وفي نصف شهر تقريبًا أعلنت بلجيكا الاستسلام لهتلر، لم يبقَ شيء يفصله عن فرنسا.

استمر جيش هتلر - الذي لا يتوقف - كأنَّ الهدف القادم فرنسا، وفي يوم العاشر من يونيو أعلن الفاشية موسوليني دخول

إيطاليا الحرب بجانب هتلر؛ لتزداد قوة المحور ويُكمل هتلر - بخطًى ثابتة - دخول فرنسا. ظنت القوات الفرنسية أنَّ هتلر سيفعل مثلما فعلت ألمانيا - في الحرب العالمية الأولى - ويهاجم فرنسا من بلجيكا مباشرةً، ولكن كان ذكاء هتلر أكبر من ذلك؛ وترك القوات الفرنسية تتوغل في بلجيكا بجيشها، وحرَّك هتلر جيشين وأحكم القبضة على فرنسا من جهتين؛ ليقع الجيش الفرنسي فريسة سهلة للألمان الذين بدءوا - بالفعل - التوغل في شمال فرنسا، واستمروا في التقدم حتى وصلوا لعاصمة النور (باريس) العاصمة الفرنسية.

في الرابع عشر من يونيو وصل الألمان لحدود باريس؛ بدأ الأهالي في الفرار والهروب؛ لن يجلسوا حتى يقتلهم هتلر وجنوده، القوات الألمانية تصل إلى قوس النصر، وتقترب من - قلب العاصمة - برج إيفل. بدأ الألمان عمل استعراضهم في الشوارع، في الوقت الذي حاصر فيه السكان الفارين بعد تدمير الجسور فيما عُرِفَ (صفر الخروج) ولم يبقَ أمامهم سوى الهلاك أو الاستسلام. تَوَلَّي المارشال (بيتان) أمور فرنسا وأعلن الاستسلام بعد ثلاثة أيام، يصل هتلر إلى باريس، تصور الدعاية وهو أمام برج إيفل - فخر فرنسا - هو وقادته، لقد أكد للعالم بأنه خصم لا يُستهان به. لقد أحضر معه عربة القطار التي وُقِّعَ بها استسلام ألمانيا في الحرب

الأولى، لقد برع في أن يُذِلَّ - بهذه العربة - الفرنسيين؛ وَوَقَّعَ بها استسلام فرنسا وإلغاء معاهدة فرماي التي أهانت يوبخون حكام فرنسا أنه رجل في منتهى الذكاء. عاد هتلر لألمانيا وكل ألمانيا تهتفُ له، لم يعد هناك أحد يعارضه؛ الآن سيفعل كل ما يريد، تَخَلَّصَ الآن من أكبر القوى العظمى، ولكن مازالت هناك دولة تنغص عليه احتفاله؛ بريطانيا، جزيرة في البحر ولا يمكن الزحف لها أبدًا. ولكن قادته أكدوا له بأنه يجب احتلال جزر فرنسا الشمالية؛ ليستطيع جعلها مركزًا لضرب إنجلترا وهو في مكانه، كان من تلك الجزر (جيرسي) سِجْن عبد البصير ومقبرة زملائه، لقد حان الآن وقت تلك الجزيرة لتعاني قليلاً، على الحلفاء أن يستعدوا؛ فهتلر قادم ولن يوقفه شيء مهما كان.

- انظر خلفنا هل هناك أحد يرانا.

- لا يوجد أحد الوضع آمن.

- أسرع إذن يا جاميكا؛ لا نريد أن يشعر بنا أحد.

بسرعة وبمهارة شديدة فَكَّ جاميكا مسامير الصندوق الخشبي الذي يحمل الأسلحة، كان ثقيلاً حقًّا، وفي غضون دقيقة انتهى جاميكا من فتح الصندوق.

- أمامك عدد كبير من أنواع الأسلحة اختر ما تشاء، جَذَبَ

أَحَدُ الأسلحة عين عبد البصير، كان مسدسًا صغيرًا ومليئًا قادرًا على إطلاق ٢٥ رصاصة في الدقيقة. كان هو الاختيار المثالي؛ أخذه عبد البصير وأخذ بعض الذخيرة من الصندوق، أعاد جاميكا إغلاق الصندوق بنفس السرعة، وشرعا في إيصاله إلى المعسكر بعد أن أخفى عبد البصير سلاحه جيدًا.

- لن أنسى مساعدتك يا جاميكا.
- لا تقل هذا، ولكني أطلب منك أن تُغَيِّرَ التفكير فيما ستفعله.
- لا يمكن ترك دم الشيخ بدون ثأر.
- ستعرض نفسك للهلاك.
- وهل نحن هنا في نزهة نحن في الجحيم بنفسه.
- ماذا يحدث عن السفينة؛ ولماذا الجميع ملتفين ولا يعلمون.
- فلنسرع إذن لنعرف.

وما أن وصلنا حتى وجدتُ جثة عباس تحت قدم ريتشارد مهددًا متوعدًا، واااااه، استيقظتُ من كابوس أصبح لا يفارقني، حتى أحلامي وذاكرتي تشجعاني على الانتقام، لم يعد هناك

ما أخشاه أو أبكي عليه، تحسستُ سلاحي تحت مهذتي، قريبًا سينتهي كل شيء سأنفذ انتقامي ويحدث ما يحدث.

كان يومًا مختلفًا على الجزيرة، لم يكن سوى يوم احتفال، لقد انتهى عبد البصير وما تَبَقَّى من زملائه - أحياءً - من إنشاء المخزن والمطار، أخيرًا، يوم بلا عمل شاق ولا تعذيب، وقد حلَّت على أوروبا أجواء الربيع الهادئ بعد الشتاء القارص. نَظَّمَ القائد احتفالاً صغيرًا، بينما سُمِحَ لبعض الضباط بأجازة صغيرة؛ لرويته عائلاتهم وزوجاتهم الذين نسوا أشكالهم. أعدوا بعض الطعام الجيد والمشروبات، وُضِعَت مَنَصَّة ليجلس عليها القائد وكبار رجاله؛ ليلقوا ببعض العبارات الحماسية، في الوقت ذاته كان يستعد عبد البصير لتحقيق العدل الإلهي؛ فمن قَتَلَ يُقْتَل. على ريتشارد اليوم أن يذوق - مَرَارَ - ما فعله بأحد قائمةً وبعبد البصير، تطوع ليقف على الطعام لتقديم الطعام للجنود، وحتى يأمنوا شره لم يكن مسلحًا، أو هذا ما ظنوه؛ لقد أخفى عبد البصير سلاحه في كيس أسفل شجرة قريبة؛ منتظرًا الموعد المناسب لتحقيق هدفه.

بدأ الحفل صباحًا، اجتمع الجميع أمام المنصة والقائد يتناوبون على إلقاء خطبتهم، والتي امتلأت بالعبارات القوية ومدح أوطانهم، ويتوعدون هتلر وأنَّ النصر سيصبح لهم، بينما

الجنود يصيحون ويهللون. بالطبع لم يكن أحد منهم يعلم ما حدث بباريس، هل يخبرهم قادتهم حتى تخور عزيمتهم، أوشك الحفل على الانتهاء؛ وهنا لاح ريتشارد -مستعدًا - لإلقاء كلمته الأخيرة، في ذلك الوقت استأذن عبد البصير صديقه أن يأخذ مكانه؛ حتى يذهب لدورة المياه، وهنا هرول عبد البصير للشجرة؛ حَفَرَ سريعًا وأخرج السلاح، وضع في خزنة الطلقات، كان ينوي تفريغها جميعًا به، وعاد لموقعه.

- والآن أدعوكم لننهي الاحتفال، وسيعود العمل من الغد.

- هذا من أجل أصدقائي ريتشارد.

طاااااخ طاااااااخ

لم ينتبه عبد البصير جيدًا للتصويب، اهتم بتوصيل الرسالة أكثر وكأنه يحذره من هجوم، وللأسف استطاع ريتشارد الهروب، بينما استقرت رصاصة بقلب نائب الجنرال الجالس بجانبه، ساد الهرج المعسكر لم ينتظر عبد البصير كثيرًا؛ وجد نفسه لا إراديًّا يهرب. ولكنه لا يعلم أين يجري وكيف، في الوقت ذاته صرخ ريتشارد بجنوده بإحضاره حيًّا؛ ليلقنه درسًا في الأدب والتعامل مع الكبير، أولاً لم يعرف أصدقاء عبد البصير ماذا يفعلون؛ فهم يعلمون بأنَّ قلبه يُدْمِي على أصدقائه، وأنَّ الحياة غير فارقة

معه، ولكن الجنود انتشروا في كل أرجاء الجزيرة يبحثون عنه. بينما عبد البصير مختبئًا، امر بأنَّ تلك نهايته، لم يحزن ولكن ما عصر قلبه حقًّا أنه لم يقضِ على ريتشارد، ولن يأخذ حق أصدقائه، كيف سيواجههم عندما ينزل إلى حفرة جوارهم، أهكذا تكون نهايته ما أبشعها نهاية. ولكن هناك حدث ما لم يكن في الحسبان؛ بينما عبد البصير منهمكًا في حُزْنِه سمع صوتًا كقريب لرأسه، يبدو أنه سمعه قبل ذلك، ولكن لم يكن في مناسبة سارة، ماذا؟ إنه صوت ستوكا! لقد عاد الألمان ولن يمنعهم شيء. فبينما الجنود وريتشارد يبحثون عن عبد البصير، نظروا فوقهم ليجدوا سربًا جديدًا من الطائرات الألمانية تُحَلِّقُ فوقهم، ولكن كانوا يتعدون الخمسين طائرة، بدأت الطائرات في إلقاء زهور السلام التي حَوَّلت جنديًا - يقف قريبًا من ريتشارد - إلى أشلاء، أخذت الانفجارات تُدَوي في أرجاء الجزيرة. ضربت الطائرات مطار الحلفاء وطائراتهم التي لم تُقلع، اندلعت الحرائق في الجزيرة، أمر ريتشارد بالعودة للمعسكر للمقاومة، وصل الجنود، فتحوا مخازن الأسلحة، أخرجوا ما لديهم من مدافع (الأربي جيه) والجيرانوف، والقنابل اليدوية. سَلَّحُوا كل الجنود وبدءوا في التسديد ناحية الطائرات، ولكن ستوكا تُحَوِّل المعسكر والسكنات إلى كتلة نار، حتى مخزن السلاح، قذيفة واحدة كانت كفيلة بتحويله لانفجار

هائل، في الوقت ذاته زادت شراسة المقاومة من الحلفاء، أسقطوا أكثر من طائرة لألمانيا، حاول ريتشارد إرسال استغاثة بلا فائدة. ضُرِبَت كل خطوط الاتصال على الشاطئ، يبدو أنَّ ألمانيا وصلت بقطعتين حربيتين، قامت بإنزال مئات الجنود؛ لتبدأ معركة برية، وجهوا كل أسلحتهم تجاه المعسكر المشتعل؛ لتقتل كل من يقترب، هجوم مباعث من الجو والبر والبحر، أحَسَّ ريتشارد باقتراب النهاية. حاول الوصول لمكتبه لإخفاء أي أوراق أو مستندات – بها أوراق سرية لمعلومات حربية – قد تفيد الحلفاء، ولكن ما لا يعلمه أنَّ عبد البصير كان في طريق عودته لمكتبه، فلو قُدِّرَ لعبد البصير الموت – سواء على يد الحلفاء أو المحور الذين أنقذوا حياته منذ قليل –يجب أن يتم مهمته الأول وهي القضاء عليه. في ذلك الوقت وصل لمكتبه والذي سقطت أمامه جثة الجندي الحارس للمكتب، بسرعة أخذ ريتشارد المفاتيح من يد القتيل؛ ليدخل مكتبه، في ذلك الوقت استسلم الجنود، ورفعوا الراية البيضاء مطالبين بالعفو رُفِعَ علم (سواسكا) شعار النازية: الصليب المعقوف على جيرسي. وصل قائد قوات النازية (غيدرين) كان له هدف محدد؛ مكتب قائد الحلفاء؛ ليصل لمعلومات تخص البحرية الإنجليزية، كان لا بأس بإعدام بعض الجنود – الذين أعاقوا تقدم الألمان – بينما أبقوا على الأسرى وصُوَرِهِم؛ ليستهزوا بإنجلترا التي جعلت

مستعمراتها تحارب معها، وأيضًا ليستفيدوا بهم. وما أن وصل مكتب ريتشارد حتى أَعَدَّ له مفاجأة، وعبد البصير أيضًا، أسرع القائد غيدرين - بعد سقوط كل مقاومة من الحلفاء، والتمكن الكامل للنازيين على الجزيرة - إلى مكتب قائدهم، ولكنه لم يعلم بأنَّ القائد مازال حيًّا لم يستسلم وسيحاول قتله. ما أن دخل مكتبه؛ وجد المكان مرتبًا وهادئًا، وبه بعض النوافذ الزجاجية المفتوحة، وفي نهايته مكتب ضخم، ظَنَّ بأنَّ القائد ترك موقعه وهرب لأدغال الجزيرة، ذهب وجلس على المكتب وأخذ يبحث في الأدراج عن الورق، ولكن سرعان ما باغته وظهر له ريتشارد، حاول القائد إخراج سلاحه ولكن عاجله ريتشارد برصاصة في ذراعه؛ أفقدته القدرة على التحكم بيده اليمنى.

- تظنون أنكم ستنتصرون بتلك السهولة.
- لقد استسلمتم بالفعل ولا فائدة مما تفعله.
- سأموت إذن، ولكن ماخذه روحك مكافأة أولاً.
- اقتلني إذن، سيأتي غيري ويكمل المهمة.
- استعد لتودع حياتك إذن.
- ثم ينتبه ريتشارد - الذي أعطى ظهره للباب - إلى

الضيوف القادمين الذين سددوا له رصاصة إلى ظهره، لم يُجِبْ تلك المرة، لم يكن الضيوف سوى عبد البصير، والذي سقط ريتشارد وهو ينظر إليه مذهولاً.

- ألم أخبرك أنني ما قتلك ، طاااخ،

هذه من أجل الشيخ أبو الحسن،

طاااخ، وهذه من أجل عباس.

طاااخ، وهذه من أجلي أنا وما فعلتم بي.

وأخيرًا سكن الوحش ريتشارد، لا بُدَّ من حين تبادل غيدرين وعبد البصير نظرات طويلة صامته لدقائق في وقت دخل الجنود الألمان واستعدوا لإصابة عبد البصير.

اليوم أكملت مهمتي، انتقمتُ الآن من الإنجليز ومن السفاح ريتشارد، كان يتكلم مع القائد الألماني بمنتهى الخوف، بينما الآخر بارد الأعصاب، كان هذا أعظم لديَّ من قتله، لقد رأيتُ الخوف في عينيه، الآن هذا البركان الثائر داخلي منذ قَتَلَ أصدقائي، الآن أراه أمامي جثة هامدة، ونظرات حائرة من القائد الألماني، أهذا افج أم مقلب.

يصل الآن الجنود الألمان ليروا القائد الإنجليزي مقتولاً وجنديًّا إنجليزيًّا – ولكن يبدو أنَّ والدته زنت مع إفريقي ليَخْرُجَ هذا الهجين – وقائدهم، دفعوا أسلحتهم، استعدوا للتصويب، هيَّا افعلوها وأريحوني من تلك الحياة البائسة، سأكون مُمْتَنًّا لكم بشدة، ولكن كل شيء تغير في لحظات.

- ماذا تفعلون أيها الحمقى؟

- سنقتل هذا الإنجليزي.

- ومن أخبركم أنه عدو، إنه واحد من أعيننا، ارحلوا الآن، أَمِّنُوا باقي الجزيرة وانتظروا أوامري، وأحضروا الطبيب مولر ليرى يدي المصابة.

انحنى الجنود احترامًا لي وخرجوا، وبقيتُ أنا والقائد بمفردنا (غيدرين) قائد ألماني من أسرة نازية حتى النخاع، نبيلة، أبيض البشرة، أحمر لون الشعر، يبدو أنه أنهى الشوط الأربعين ودخل الشوط الخمسين في حياته، له بِنْيَة بطل روماني –قديم – من الحاصلين على المركز الثاني فوق جبل الأوليمب، لديه شعر وجه خفيف شفاف، بعد خروج الجنود ظلَّ صامتًا حتى قَتَلَ الصمت بسهم من لسانه.

- لم يُعْلِمْنِي القادة بأنه لدينا جاسوس على هذه الجزيرة.

- لم يكذب عليك قادتك سيدي.

- إذا فأنت لا تعمل لحساب ألمانيا؛ فلحساب من تعمل إذن؟ وإن كنت جنديًّا ألمانيًّا وقتلت قائدك حتى لا تُعْدَم؛ فصدقني قد فشلت خطتك.

- تستطيع القول بأنَّ لديَّ حساب عند هذا المسخ، وكان يجب أن أصفيه، ولا أخشى الموت، لو أَرَدْتَ قتلي بإمكانك هذا.

- من تكون إذن؟

مندوب ملاك الموت فرع بريطانيا العظمى.

- لهذا الحد تكرههم، هل قتلوا عائلتك أم أجبروك على الحرب، من أين أتيتَ إذن؟ أنت لست أسودًا كالأفارقة، ولا أبيضًا كالأوروبيين!

- نعم قتلوا عائلتي، أمَّا أنا فقد حملوني من بلادي رَغْمًا عَنِّي أو بإرادتي، لا يَهُم، وأنا من مصر.

- لقد أنقذتَ حياتي، وقدمتَ خدمةً لألمانيا وهتلر، لك عندي حق، لو أَرَدْتَ أعيدكَ إلى بلدك في أقرب فرصة.

- نعم أريد العودة إلى بلدي وأهلي، ولكن هناك حساب أريد تصفيته أولاً.

- مِنْ ماذا ؟ لقد قتلتَ قائد الحلفاء، ماذا تريد أكثر؟

- أريد أن أنتقم من الإنجليز وبريطانيا بأكملها، أريد – كما أسروا بلدي، وسرقوا خيرها، واستباحوا حرمتها بنجاستهم، وقتلهم أبناء بلدي – أن أنتقم، هنا لا يوجد ملك ولا حاشية يمنعوني منهم، وإن لم أستطع مقاومتهم في بلادي أفأستطيع مقاومتهم هنا.

- ماذا تريد إذن؟

- أريد أن أحارب معكم، أن أحارب من أجل هتلر وتحت علم ألمانيا.

- لا أستطيع أن أعدك الآن رغم كفاءتك، سأفكر وأبلغ القادة، وادى ما يمكن فعله، يمكنك الآن ارتداء الزي الألماني والعمل مع جنودنا حتى أُبَلَّغ بالنتيجة، من الآن أنت واحد من الألمان.

اختلفت حياتي تمامًا من بعد هذا اليوم، تم تدمير كل ما هو ملك للحلفاء، أُسْقِطَت أعلامهم ورُفِعَت الأعلام النازية، حقيقًا

لم ألقى في البداية معاملة جيدة من الألمان، ولكن ليس بسوء معاملة الإنجليز، لم يكن معظمهم يصدقون أنني جاسوس؛ كانوا يعرفون أنَّ ورائي سِرَّ ما، ولكن مع الوقت تحسنت معاملتهم. فالألمان لا يقبلون أحدًا من خارج جبنهم الأبيض بتلك السهولة، ولكن الحياة لا تنتهي من الاستثناءات، أعتقد أنَّ البشر صنعوا القوانين والقواعد والإلزامات ليخرجوا عنها؛ أصبحتُ قائدًا للأسرى الذين خرجوا من كتف الحلفاء للمحور، كنتُ رحيمًا بهم. شرعنا في بعض الأعمال، ساعدنا الألمان في إزالة آثار الدمار على الجزيرة، حصل الألمان على كل أسلحة الحلفاء السليمة، وما تَلَفَ قمنا بدفنه، لم يكن مسموح لي بعد بإمساك سلاح، ولكن سلاحي الذي قتلتُ به ريتشارد لا يفارقني طبعًا بعد نزع خزينته تذكار بسيط. تمنيتُ لو كان أصدقائي لا يزالون أحياءً، وأراهم مرة أخرى، في كل مرة أتذكرهم تشتعل النار في قلبي، لا تتوقف أمعائي كزلزال يقسمني إلى نصفين، حلفتُ لأنتقم، لن أعود بلدي إلا وأنا محملاً بأكاليل النصر. سأضعُ حدًّا للإنجليز، سأمنعهم من النصر، ليس لأنهم قتلوا أصدقائي فقط؛ ولكن من أجل العالم بأكمله، سأمنعهم من استغلال خيرات مصر، وتقسيم فلسطين، وإبادة أهل الهند، وقتل المسلمين في بنجلادش، وتدمير العراق، أيتها الشيطانة سأحرقك إلى الأبد، أنا وهتلر.

وبينما تسير حياتي على هذا المنوال تعلمتُ بعض اللغات الألمانية والإيطالية؛ فالألمان أكثر غيرة على لغتهم من زوجاتهم، وأثناء وجودي بالمعسكر جاء أحد الجنود: القائد بانتظارك في مكتبه.

- أعتقد أنه وصله الرد بشأني، هذا ما أنتظره.

لم يَطُلْ السير كثيرًا حتى وصلت لغرفة القائد، سمح لي الحارس بالدخول، وجدتُ القائد يجلس وبجانبه زجاجة خمر ومعتقة، شرب منها حتى ثمل، ولكن كان هناك شيء أغرب؛ لقد وجدتُ في نهاية المكتب فتاة - صغيرة نائمة - مستلقية على كرسي صغير، يبدو أنها في العام العاشر لها على كوكب الأرض، ملامحها بريئة هادئة، ذات شعر أصفر قصير، ولكن ما الذي يأتي بطفلة صغيرة بمكتب قائد ألماني - سكر حتى الثمالة - في جزيرة حربية! وقبل أن أقول شيئًا، تحدث هو أولاً:

- تعلم يا صديقي، لقد وصلني أمر مهاجمة تلك الجزيرة مفاجئًا، لم أكن استعددت، بعد رصدت لي بعض الطائرات والسفن، وكثير من الجنود، وقليل من التقدير، لكن لا أخدم سياسيين، أنا أخدم ألمانيا وهتلر فقط.

وكنتُ قد دخلتُ في علاقة جديدة مع سيدة من شمال فرنسا، وكان لديها طفلة، لقد دُمِّرَ منزلها كما دُمِّرَ قلبي؛ حينما رأيتها عرضتُ عليها أن تنضم إليَّ - في مهمتي - كطباخة على السفينة كانت رائعة في تحضير الحلوى والبودينغ، ولم يعترض أحد من القادة اصطحابها معي؛ باعتبارها عاملة ومخلصة لهتلر. كنتُ كل يوم على السفينة في آخر الليل أَنْسَلُّ بنفسي إلى غرفتها، كنت أنسى معها همومي ومخاوفي، كانت عطوفة وجميلة ومثيرة أيضًا، كنت أشعر أننا زوجان حديثان على ظهر باخرة سياحية؛ لقضاء شهر العسل في فيينا، وفي ربوع البندقية أحببتها من كل قلبي، حتى جاء يوم لم يكن فيه مهام كثيرة. انتهيتُ من إنهاء فترة عمل الشمس، مع الغروب دخلتُ غرفتها وجدتها ترسل شفرات خاصة للبحرية الفرنسية؛ ليعترضوا طريقنا، أتعلم، لم يغضبني هذا حقًّا بقدر أني عرفتُ أنها يهودية.

ألقيتُ القبض عليها بنفسي، سددتُ رصاصة نحو مُخِّهَا؛ فانفجر أمام عيني، كنت رحيمًا حتى في موتها؛ أهديتها راحة سريعة، بعد ذلك عُدْتُ لتفتيش باقي الغرفة، لم أجد سوى بعض الصور الخاصة بنا، صورة وأنا أحتضنها، صورة وهي تُقبلني، وصورة أخرى ونحن نبتسم لبعضنا وكانت خلفنا أشجار قبل أن تسويها طائرات الحلفاء والمحور بالأرض، إخلاص وحب كبير من خائنة تعثرت يدي في رسالة لها.

– حبيبتي غيجرين عرفتكِ منذ خمس سنوات، وقد كنا نحيى في سلام.

– كنتَ طيب القلب، ناصع الابتسامة، لم يكن هتلر قد لَوَّث عقلك، عشقتكَ مثلما عشقتُ فرنسا، ولكن أصدقاؤك دمروا فرنسا، ولكن لم يُدَمَّرْ حبك من قلبي، حتى بعد تدمير منزلي لم يبقَ لي في الحياة سواك وابنتي وهيلجأ من هيلجأ؟ نعم ألم أخبرك أنني حامل منك، سيكون لي شيء منك، سأسميها (هيلجا). لقد عشقتها قبل أن أراها؛ لأنها منكَ أعلمكَ بأنني اتبعتكَ، ولكن لا أوافقك فيما ستفعله؛ لقد اقتحم سيدك بلادي ولن أتركه، عيبك الوحيد أنك تتبع المخبول الظالم، عزيزي أحلمُ كل يوم بعالم يحمل السلام لا حروب ولا دماء، أحلمُ بالورد يكسر العالم والسماء، والأنهار الزرقاء. سنعيش أنا وأنت وابنتينا نجري ونلعب، يكبران أمامنا ونُزَوِّجَهَم وأموت وأنا أحتضنُ يديك، أرجوكَ أن تسامحني على خيانتي، وأيضًا لم أخبر الفرنسيين على اسمك أو أنك قائد الأسطول، وأيضًا وضعتُ لك ورقة اليوم في الجيب الخلفي؛ لتحذيرك بالهروب، حتى لو قتلتني سأكون سعيدة بأن أموت على يد حبيبي...الوداع.

– ورقة واحدة جعلت قلبي يعتصرُ حزنًا، بكيت، نعم كنتُ أول مرة أبكي في حياتي، لقد حزنتُ حينما قُتِلَ أبي، ولكني رفعتُ رأسي وأبت عيني أن تدمع، ولكن لا أعلم ما حدث.

حسيتُ على ركبتي، أخذتُ في البكاء كطفل صغير فقد والدته، دموعي تنهمر، احتضنتُ الورقة حتى كادت أن تتلاشى في يدي، تشممتُ رائحتها في السطور، رأيتُ عينيها في الورقة، تذكرتُ ابتسامتها في الكلمات، كانت سيدة قلبي الأول قبل أن يتبذها عقلي.

تابع عبد البصير كلمات الجنرال الذي ترقرقت دمعة من عينيه لتبلل ملابسه العسكرية، كنتُ أحسبهم جميعًا جماد لا إحساس، أو مشاعر لديهم حتى تكلمت:

- سيدي لماذا تخبرني بتلك القصة.
- هل ترى تلك الطفلة الصغيرة الباركة هناك.
- نعم يا سيدي.
- إنها تحملُ كثيرًا من ملامح والدتها، وأنا لا أريد تذكر والدتها إلى الأبد.

أخرجَ القائد مسدسًا كبيرًا من مكتبة وأعطاني إياه:

- لقد طلبتَ الانضمام لجيش هتلر العظيم، وأنا عرضتُ الأمر على بعض القادة، ووافقوا خاصة ما أبديته من إخلاص لهم بقتل القائد الإنجليزي، ولكن تبقى شيء آخر.

- ما هو؟

- أن تثبتَ ولاءك لي أنا.

- وكيف أثبتُ ولائي؟

- اقتل الطفلة.

- ...

- ألم تسمع ما أقول؟ لو فعلتَ هذا؛ سأجعلك من أصحاب الكبير والكلمة المسموعة في ألمانيا.

- ولكن ما ذنب الفتاة؟

- والدة الفتاة أحبتني كثيرًا أكثر من نفسها، ولكنها كرهت هتلر، مسكينة؛ لم تكن تعرف بأني أحب هتلر أكثر من نفسي، للحظات تذكرتُ كلمات شخص شبيه به كثيرًا، جميعهم واحد مع اختلاف الألقاب والمُسميات (قادتي سعداء؛ إذن أنا سعيد).

- لقد قَتَلَتْ ابنتي - التي لم ترَ الحياة - بفعلتها، فيجب أن تموت ابنتها أيضًا، ولكن هَوِّن عليك؛ ففي النهاية هي يهودية نجسة. لم أكن أعلم سِرَّ كُرْهِ الألمان لليهود، لا أعرف سوى أنَّ هتلر اتهمهم بهزيمة ألمانيا في الحرب

الأولى، وأنهم سبب الأزمة الاقتصادية في العالم، ومن يعلم فقد يكونوا السبب في خسارة برويا دورتموند من فريق مانشستر الإنجليزي؛ وهذا ما أدَّى لإحراق الآلاَف من اليهود في نار فرعون ألمانيا. لقد أمسكتُ بالسلاح ويدي ترتعش، صوبته تجاه الفتاة ويدي مازالت ترتعش، نظرتُ للفتاة نظرات طويلة، لا أعرف ماذا أفعل! عقلي لا يطاوعني، قلبي لا يطاوعني، يدي لا تطاوعني، حتى أنا لا أطاوعني. للحظات أغمض عيني وأفتح لأجد العمدة في ظهري، وأنا أحمل السلاح وأنظرُ للفتاة، مهلاً إنها ليست الفتاة، بل فتاة أخرى؛ إنها زينب، زينب أختي! يا للهول، ماذا يحدث! أين أنا، لحظات وعدتُ لو يحيى مرة أخرى، ولكن لم يتغير شيء، القائد من خلفي يختفي، وأنا واقف ساكنًا لا أفعل شيئًا. بدأت الدموع تفيض من دلتا عيني إلى صعيد وجهي، استمرت رأسي في الاهتزاز، وسقط السلاح من يدي.

- كنتُ أحسبُ أنك رجل مخلص يمكن الاعتماد عليه.

- لا أستطيع سيدي؛ لا يمكنني التحمل.

- لا تنظر أنها طفلة صغيرة؛ انظر أنها يهودية.

- ليس لديَّ مشكلة مع اليهود في ديني؛ هم أهل كتاب.

- لكن هتلر لديه مشكلة.

كان هتلر حقًّا مريضًا نفسيًّا، أو فني معقد ليس للفتيات دخل هنا، ولكن مع اليهود، كان هتلر من أسرة فقيرة، وكان لديه إخوة مما أجبر والدته على العمل في منزل أثرياء يهود، كانوا وَحْشِيين بدرجة تعذيب والدته أمام عينه. لم يستطع أن يحرك لكن كتم في أعماقه، لعن الحاجة ولعن الفقر ولعن اليهود، وكان يحب أن يتذوق اليهود لعنة هتلر، أباد وأحرق، قام بعزلهم عن البشر وفي معسكرات، ذاقوا الجوع والعطش، عَذَّبَهُم بكل الوسائل والطرق، كان يتمنى وجود والدته لترى كيف أصبح ابنها مجنونًا كبيرًا، هتلر يصبح شيطانًا.

ولكن اليهود ليسوا ملائكة؛ ففي الوقت الذي يفعل فيهم الأفاعيل كانوا يُحَضِّرُون لما هو أسوأ، فعلى فلسطين – الآن – أن تذوق دواء هتلر لليهود.

- وهل هتلر هذا مبرر لأقتل طفلة صغيرة؟

- دعني أُحْضِر مسلم صغير، وأحضر يهودي في سنك ونرى ماذا سيحدث، هؤلاء شياطين؛ سيفعلون بك وبالغرب الأفاعيل، ألم تسمع يومًا عن أو بلفور وما يخططون له؟

obeikan.com

- إنجلترا من صنعته، وأنا أريد الانتقام منها بشدة، ولكن أرجوك لن أستطيع فعل هذا.

- مخالفة الأوامر العسكرية عقوبتها الموت.

- أموت إذن.

- لهذا الحد قلبك ضعيف!

- زفر غيدريت أنفاس الغضب بداخله، وصمت عبد البصير:

- كما تريد عبد البصير، أنت لا تعلم ما قوته على نفسك من فرض، عُدّ الآن لعملك وانتظر حتى تعرف مهمتك الأولى، وأرجو ألا تفسد؛ لأنه في تلك المرة لن أرحمك.

تحول كابوس عبد البصير إلى حلم سعيد؛ هتلر الآن يحقق ما حلم به، كلاهما قد بدأ في طَرْقِ أبواب بريطانيا العظمى، ليس طَرْقَهَا وحسب بل تهشيمها وتفكيكها، فبعد سقوط - فرنسا ومعظم أوروبا في قبضته - لم يبقَ عدو قوي أمامه سوى بريطانيا. لاحت طائرات هتلر كالكلاب الجائعة في الأفق، طَوَّرَ طيران هتلر مقاتلة أقوى من ستوكا وهي (لوقت وافا) سيدة السماء الجديدة الآن تستعد لقصف أرض المملكة، بدأت في قصف

مدن بريطانيا ليلاً؛ تضررت لندن كثيرًا، كان شعبها على نحو من القوة، كانوا يبيتون في الأنفاق ليلاً ويذهبون للعمل نهارًا. سقطت المئات من الأرواح التي ترتدي البدل والفساتين، وليس أصحاب الزي العسكري، على العالم أن يرجع أمام سيده الجديد بتاجه الدموي المُزَيَّن، شعر هتلر بقرب سقوط بريطانيا. أخيرًا سيرى رئيس وزرائها تشرشل وهو صامتًا، منكس الرأس يمضي اتفاقية الاستسلام؛ ليسير هتلر بوجه عابس وقلب وعقل منتصر، زاد ولائي وإيماني بهتلر وقضيته أخيرًا، أرى الإنجليز يبكون ويُعَذَّبُون مثلما عذبوا بلدي وأهلي وأصدقائي، صحيح أنهم لم يستسلموا بعد ولكن الأمر أصبح قريبًا. يستعد الآن سرب من ١٠٠٠٠ طائرة ألمانية للتحليق فوق سماء بريطانيا، يبحثون عن الأهداف الحيوية - كحيوانات منوية تبحث عن بويضة - بينما استعدت بريطانيا لمعركة فاصلة في تاريخها، خرج تشرشل بالعبارات الحماسية:

- سنحارب في المدن والقرى والشوارع والأزقة،

ستعيش هذه المملكة لآلاَف السنين، ولو سقطت فسيقول الناس أنَّ تلك كانت أفضل أوقاتها.

تَجَهَّزَ سرب من طائرات بريطانيا الجديدة الماركة (سبيد فاير) كانت اسم على مُسَمَّى؛ استطاعت الدخول في معركة جوية

فاصلة أمام الطيران الألماني لتَسْقُطَ منها ٥٠٠ طائرة، بينما أَسْقَطَت لهتلر أكثر من ألف طائرة، أصبحت السيادة الجوية والبحرية لبريطانيا، كما أنَّ الحليف الأمريكي لا يزال يزودهم بكل ما يحتاجون. شعر هتلر بخيبة الأمل؛ كانت تلك أول مرة يُهْزَم فيها، كل معركة كبيرة كتلك، لكن خططه لا تنتهي، ولكن أعتقد أنَّ الهزيمة قد أطاحت بعقله إلى الأبد؛ فلا يوجد شخص عاقل قد يفكر فيما يفكر فيه؛، سيفعل ما أقدم عليه (نابليون بونابرت) سابقًا ولم يقدر عليه، فكيف سيقدر عليه هو، إنه الجحيم بعينه.

منتصف شهر يونيو من العام ١٩٤١ في ال ٤ صباحًا من بين ظلام وصمت المعسكر إلا من همهمات حراس الرقابة. انطلقت صفارات الإنذار كصيحة فزع، اليوم الموعود ليهب الجنود من أحلامهم السعيدة والمثيرة لواقعهم المشئوم، وفي حدث لم يحالفه الحظ في دخول موسوعة جينيس للأرقام القياسية؛ حيث معسكر بأكمله يرتدي ملابسه، ويتجمع في ساحة في حوالي أقل من دقيقة كخلية نحل. وشع نور غيدرين في الجنود أو بالأحرى نور سيارته الذي أبلغهم بالتحرك من الجزيرة، وأنه سيترك قائدًا وحوالي ربع الجنود وباقي العمال لإتمام أعمال وحراسة الجزيرة، ولكن طبعاً كان عبد البصير ممن سيذهبون إلى ما لا يعرف أحد ما هو، ارتدوا كامل ملابسهم، أخذوا سلاحهم وذخيرتهم والمؤن. كان

عليهم الإسراع فالسفينة التي ستُقلُّهُم - إلى ما لا يعرف أحد ما هو - ستأتي بعد ساعة من الآن .

أتمَّ الجنود استعدادهم بالتأكيد، لم تخلُ الجزيرة في هذا الوقت من الجنود والنخيل والإشاعات - التي انتشرت كالهشيم - البعض أخرج نظرية عملية بأنهم سيقومون بشن حملة كبيرة على بريطانيا، وأنهم مجرد زوج في قطيع خنازير برية في هذا الهجوم. وهو ما اعتقد وانضم لهم في رأيهم عبد البصير، والبعض صحح المقولة بأنهم سيهاجمون الهند أو إسبانيا، ولكن سرعة الاستعداد لم تمهلهم الوقت ليفكروا في المفاجأة الغير سارة القادمة.

السفينة تلوح في الأفق، وَدَّعَ عبد البصير زملاءه وآخر من تَبَقَّى له من ذكرياته الحزينة، ولكنه لم يشأ أن ينساها بعد إلا بعد أن يأخذ حقه، استمرت ذكرياته كالحطب الذي يشتعل في حريق قلبه، ولكنها لم تكن سوى مجرد نيران صديقة.

اعتلينا الآن قمة السفينة البحرية، وُضِعَت كل شعارات هتلر فوقها، فقط كان ينقصها شارب هتلر القصير، بها تشكيلة من أجود أنواع مُزْهِقَات الأرواح من مدافع وأسلحة ضخمة كتتين معدني برمائي، شرعت في التحرك. بدأت تبتعد عن الجزيرة شيئًا فشيئًا، أنظر لها من بعيد كحبة رمل فقدت لونها الأصفر

ومالت للأحمر؛ لتظهر بشاعتها المختبئة وراء شواطئها وأشجارها الخلابة، ولكن لقد جاء للجزيرة وهو مجرد عبد، واليوم يغادرها كَمَلِك، ابتعدت حتى اختفت ولم يبقَ منها سوى ما رشح في ذاكرته. وبمجرد الاستقرار على السفينة - واستلم الجنود وسائدهم وغرفهم - خرج عبد البصير ليلاً من غرفته واتجه صوب مقدمة السفينة؛ ليجلس أمام البحر - الأزرق نهارًا الأسود ليلاً - كثقب أسود في فضاء خالي، لحظات من الهدوء والسكينة لم يحصل عليهم - منذ زمن - بالرغم مما هو مقدم عليه ولا يعرفه. بعد قطع الهدء مقص كجلدي يحمل صوت بيادة جيش في قدم غيدرين، انتبه له الهندي فقدم له التحية النازية؛ يرفع يدي اليمنى لفوق بينما جلس الآخر مكان عبد البصير وظل هو واقفًا.

- أتعلم عبد البصير اللون الأسود يعطي بريقًا خاصًّا، وعظمة للبحر أكثر من اللون الأزرق.
- ولكنه أيضًا يَخْفَى عليه بعض الخوف وعدم الوضوح.
- البحر نهارًا مكانًا للحمقى والعامة، والكشافة يجلسون أمامه لبعض الحب والتأمل والبلاهة، أمَّا ليلاً فهو للرجال فقط، هل سمعت يومًا في حكاية أو قصة عن بحار ما رعوا البحر نهارًا.

- سيدي، هل لي أن أسأل إلى أين نتيجة، وماذا ستفعل؟

- أعتقد أننا سنذهب لفرنسا؛ ليحتسي الجيش الألماني بعض القهوة أمام برج إيفل، والعودة مرة أخرى!

- عفوًا سيدي على سؤالي.

- عبد البصير أنا أحبك لذكائك، لا تُشعرني بالخزي تجاهك.

- مَطَّ شفتيه في غضب شديد، ولكنه ظل منحنيًا أمام غيدرين.

- أعتذر لك يا صديقي أريدك فقط أن تعلم بأنه بتحركنا هذا؛ فنحن ذاهبون لنصر ألمانيا، لا يهم ماذا سنفعل أو ما هي مهمتنا، وأيضًا لا يهم أين سنذهب، عليكم فقط الاستعداد والتفاني فيما ستفعلونه، عليكم فقط الولاء للقادة ولكن لا تتفانى أكثر من اللازم.

- ما أهمية القادة، لا أراهم سوى بعض نزلاء دار مسنين.

- أتعلم لماذا يرتدي القادة – في الحروب – ملابس جنود، وأنَّ الجندي إن سقط في أيدي الأعداء؛ فأقصى معلوماته هو عدد حصص الطعام التي يتناولها.

obeikan.com

- أما القائد فهو يعرف حتى مقاسات ملابس جنوده الداخلية، لو مات عسكري على رقعة الشطرنج فهذا لن يؤثر كثيرًا على مجريات اللعبة، ولكن لو سقطت أحجار الطابية أو الحصان فالمَلِكُ سيكون في مأزق كبير.

- ولكني حتى الآن لم أحضر حربًا حقيقية، كيف سأعمل بمفردي؟

- استمع إليَّ جيدًا يا عبد البصير في كلماتي، تلك الحرب لا تقبل القسمة على اثنين، روحك أمام روح أخرى. في الحرب ستتألم وستبكي، ستنوح كالنساء في الحرب، ستضحك وترقص، ستقاوم كالجبال، في الحرب ستتدهش وستندم، ستسلم كالفئران. الحرب عبارة عن غضب وفرح، وأمل وضعف، ومقاومة وهزيمة، وسعادة وحزن، وأشلاء مبعثرة، وجثث متفحمة، وصديق مقتول وحبيبة مجروحة، وأطفال مشردين.

- أخشى أن أسقط في بداية المعركة.

- لو سقطت سيبارك الرب روحك، ولكن إن استمريت فاحرص على أن لا تصل روح أعدائك للرب.

- هل نحن على حق؟

obeikan.com

- لا أعرف، عندما سأذهب للرب سأسأله، ولكن في النهاية هم من أعلنوا الحرب أولاً، ولكن يبدو من اتجاه السفينة أننا لسنا في اتجاه بريطانيا، بلا نتيجة نحو الشرق.

- الشرق، وماذا نفعل في الشرق.

- يبدو أنَّ رياح هتلر ستهب على أرض ستالين.

- ستالين ستالين، أتقصد أننا سنذهب للاتحاد السوفياتي؟

- دائمًا يُدهشني هتلر بذكائه، ولكن أن نواجه بريطانيا بضرب روسيا! حقيقًا لا أعرف فيما يفكر هتلر، في داخل الجندي يبدو أنه سيحرق العالم وسيحرقنا معه.

لم يشفع للاتحاد أو ستالين أنهم كانوا أنصارًا لهتلر، ويمدونه بالحديد والسلاح والقمح، ورغم وصول إشارات تحذير لستالين – قائد البلشفين – بهجوم هتلر – من جواسيسه إلا أنه لم يصدق حتى الثاني والعشرين من يونيو عام ٩٤، أو في ٧ صباحًا تقريبًا تَحَرَّك ما يقرب من ملايين جندي بينهم عبد البصير. ويضع الآلاف من الطائرات والدبابات والمدافع والشاحنات، لا يكذب من يقول أنه أكبر غزو – في العالم – لاقتحام أكبر قوة في العالم، تحت مسمى عملية باربروسا، الإمبراطور الألماني الذي عاد من سباته؛ ليستعد أمجاد ألمانيا وهتلر الضائعة. وُضِعَت للعملية ثلاثة

أهداف: لينينجراد وموسكو وأوكرانيا، سيخوض الألمان حربًا على جبهة أكثر من ٣٠٠٠ كيلو، تحرك الجنود من الحدود الألمانية واخترقوا الحدود الروسية؛ إعلانًا لبدء أكبر عملية في التاريخ، سار عبد البصير وسط زملائه يُرددون الأغاني الحماسية في الطريق.

نتجه الآن نحو الشرق

نحو الأراضي الروسية

احملوا أسلحتكم أيها الزملاء

سيكون النصر حليفنا

من فنلندا إلى البحر الأسود

تَقَدَّم تَقَدَّم

تَقَدَّم أيها الجيش المهاجم نحو الشرق

الحرية هي هدفنا

النصر شعارنا

أعطنا الأوامر أيها الفهرر

سوف نتبعك

obeikan.com

على الفتيات الانتظار

فنحن ذاهبون لنحارب

الجميع كانوا يرددون سعداء، الحماس ازداد بنسبة كبيرة، لكن هذا لم يمنع الخوف - القابع في صدورهم - خلف قضبان أقفاصهم الصدرية، لم يذهب أحد لروسيا وعاد منتصرًا، هذا في حالة إن عاد الاتحاد، ليس دولة بل قادة كبيرة تحركنا مئات الكيلوات، بدون وجهة نخترق أراضي شاسعة على طول الطريق. لم نجد سوى مقاومة بسيطة، لم يتوقع البلشفين تحركنا بسرعة، كانوا يملكون سلاحًا واحدًا لكل أربعة رجال، أَسَرْنَا كتائب بأكملها، لاح النصر في الأفق، ولكن لا تنتهي الحروب بتلك السهولة؛ فنحن نسير في طرق غير ممهدة. كانت الإمدادات تصل بصعوبة، وعندما نقترب من قرية كان الفلاحون يحرقون كل شيء؛ اتبعوا سياسة الأرض المحروقة بأوامر ستالين، لن يتركوا لنا بيتًا، أو طعامًا، أو شرابًا، أو مأوى، لن نحصل على غنائم، لن نجد سوى الرماد الذي أصبح يُلَوِّنُ كل شيء أمامنا، والروس يبتعدون بالقطارات ناحية جبال الأورال.

وأخيرًا نقترب، وصلنا لحدود مدينة (أسموليبك) آخر مدينة قبل موسكو عاصمة الجانب الشرقي من العالم، وفي خلال ثلاثة

أسابيع خضعت لنا المدينة بالكامل، ولكن الطعام أوشك على النفاذ، زاد القلق من أن يقضي علينا الجوع بدلاً من رصاص الروس. أعطى هتلر الأوامر بالهجوم على أوكرانيا للحصول على القمح، ولكن لم نخض حربًا هناك؛ عاملنا الأوكرانيون جيدًا، كانوا يكرهون ستالين والروس، الظلم قادر على جعلك تكره كل ما تؤمن به وتحيى عليه؛ اعتبرونا محررين ومنقذين، ولكن القيادات الحكيمة استعدت الأوكرانيين حتى الموت، وكان الموت ينتظرنا نحن أيضًا.

أخيرًا انتهت الماكينة الألمانية من سحب خير أوكرانيا من الطعام والشراب، الآن نستطيع الرحيل بعدما نهينا كل شيء، بل واستُعْبِدَت القيادات أوكرانيا الذي قوم خير في الألمان، وأنهم سينقذونهم من بطش ستالين. الآن نستطيع إكمال طريقنا نحو موسكو بضمير راضٍ وسعيد، قطعنا الكيلو في الآخر بسرعة أسد إفريقي، ولكن كان للطبيعة كلمات أخرى؛ لقد بدأ الخريف، ولكن خريف روسيا ليس كأي خريف آخر، لقد قصفتنا السماء يوميًّا بوابل من الماء البارد، ولكن ماذا تفعل بعض الماء أمام أضخم جيش في العالم؟

لا سوف تفعل، لقد استقبلت الأرض هدية السماء؛ وامتزج الماء بالتراب مكونًا جبال من الطين، لقد كان الطين البالي أخطر

على ألمانيا من روسيا نفسها، مثلما كان الطين البالي سبب قيام الحرب وكل مشاكل الأرض منذ يوم خلق الله الطينة الآدمية آدم عليه السلام. لقد عاقت حركتنا لقد بطئت السيارات ثم توقفت دبابات ألمانيا، خرت سريعا أمام الطين، قَلَّت سرعة الجنود أصبح الجندي القادر على حمل قدمه – من مرفع ليتحرك لموضع آخر – بطلاً يجب تكريمه على ساحات المنايا. شلت الحركة تمامًا، ما تركنا الأغراض الثقيلة، أصبحنا نجتاز مسافات قصيرة يوميًّا، ولكن هذا أيضًا لم يساعد الإمدادات على أن تصل، ولكن يجب أن نصل إلى موسكو بأي شكل، أصبحنا على هذا الوضع طوال الخريف، كنا نظن أنَّ هذا أخطر ما سيحدث، ولكننا سبقنا الأحداث.

زحفنا إلى موسكو الخريف سينتهي وهدأت الأمطار أخيرًا، ستنتهي الحرب قريبًا، سنسحقُ روسيا كما سُحِقَت أوكرانيا، ولينينغراد التي قضى حصار الطعام والقصف المدفعي على آخر نفس مقاومة لديها، ولم يبقَ سوى العاصمة موسكو، وعندما يضع هتلر يده على روسيا وخيرها؛ سيحكم العالم قريبًا.

- سيبارك المسيح أرواحنا،

سيغمرنا بالرحمة والمغفرة، ستنمو أزهار الياسمين والنرجس فوق قبورنا، سيُزَيِّنُ الصليب الأبيض قبورنا، ولكن أي صليب سيُعَلَّق! صليب الرب أم صليب هتلر المعقوف؟ كيف للرب أن يرحمنا ونحن قتلة؛ قتلنا حتى القساوسة، هشمنا صُلْبَانَه، وحرقنا الأيقونات، رأيتُ صور المسيح تحترق، ولم أُحَرِّك ساكنًا.

- سيحرقنا الرب بنار السماء عقابًا على نار الأرض التي أشعلناها، حتى صليبنا المعقوف، حتى الصليب لم يسلم منك يا هتلر.

يُقال بأنَّ الشخص لحظة موته يقول الحقيقة؟ كانت هذه آخر كلمات نطق بها جندي ألماني، رجل في أواخر الأربعينيات، لا أعلم ما مؤهله ليستحمل معاناة كتلك،

فخذه مُتَرَهِّل، معدته كمنطاد هليوم، مواصفات تليق بطاهٍ وليس محارب.

حبس العديد من الجنود – في العيادة – دموعهم، دموع مجهولة الهوية، أشفقة، أم خوف من مصير مشابه من رصاصة تُنْهِي كل شيء؟ والوضع الراهن يدعم المقولة الثانية؛ لأسباب عدة:-

١- وصول درجات الحرارة لما يقارب ٤٠ درجة تحت الصفر.

٢- أرض قاحلة تمتد لآلاَف الكيلومترات دون نهاية.

٣- جيش متواضع قُوَامِه جنود بدرجة فلاحين وعمال.

٤- سقوط الآلاَف من الجيش، ودفنهم الثلج.

٥- نستنتج مما سبق موتًا أكيدًا وهزيمة وشيكة.

عجبًا لهذه الحرب! قادة في قلاع وحصون يُحَيُّون الجنود وهم خارجين للحرب؛ فيعود ما تَبَقَّى منهم إمَّا جرحى وإمَّا مشوهين، وأيضًا يؤدون التحية. تغير حال الجنود ولكن القادة لم يتغيروا، ولم تُخْدَش حتى قلاعهم، لا يهمهم فقط سوى أن تُؤَدَّى التحية لهم.

في تلك اللحظات وصل قائد الكتيبة ومعه الدكتور المشرف، استعدوا لخطبة رنانة مكررة مملة:

- أبناء ألمانيا وجنود هتلر، نعلم أننا نمر بظروف عصيبة ولكن النصر وشيك، قريبًا ستسقط روسيا ويسقط اتحادهم وسنسود العالم، سنَضْعُفُ نحن حتى لا تُضْعُف ألمانيا. سنصاب نحن حتى لا تصاب ألمانيا، سنموت نحن حتى لا تموت ألمانيا.

ألمانيا أم هتلر ألا يوجد أحد دقيق في كلامه، وبأذرع أصابها الوهن أدينا تحية هتلر.

- الدكتور غيمن يريد إعلامكم بتحذيرات:-

- من الآن فصاعدًا يُمْنَعُ على أحد تغيير ملابسة لأي غرض، حتى الاستحمام، حتى وإن أصابكم القمل والطفيليات.

- في حالة الإصابة بأمراض الإسهال عليكم بصنع ثقوبًا في البنطال، أُحَذِّرُ من سيخلع بِنْطَالَه سيموت على الفور متجمدًا، حاولوا تسخين الطعام كثيرًا ولا تأكلوا طعامً باردًا، هذا لسلامتكم، والآن استمعوا للقائد:-

- أحمل لكم أنباءً – سارة – أردت قولها في النهاية؛ صدر أمر لكل الكتائب بالتوجه لمعقل صناعتهم، من اليوم سنزحف لستالينغراد، وصدقوني ستنسيكم الحرب آلاَمكم.

الحرب لا تُنسي الألم بل تزيده، خاصةً لو كانت وجهتك ستالينغراد، ولكن كنا في حاجة لحرب، حرب تشعل الحماس الذي أطفأه البرد، أردنا التخلص من الأغطية الصوفية ونمسك البنادق،إمَّا أن ننتصر فتشعل نار القنابل الحرارة؛ لنقهر البرد، وإمَّا أن نموت فينتهي ذلك العناء للأبد.

●●●

إنها تلوح في الأفق بأبراج مصانعها ومنازلها، جزيرة بيضاء وسط بحر أسود، ولكن ليست لناجٍ واحدٍ، ولكن لركاب سفينة - عملاقة - أغرقها قبطانها؛ لأنه أراد مسابقة حوتًا أبيضًا في سباق سرعة.

سنهجمُ عليها بكل قواتنا، سنهجم كَسُكَّان جحيم حصلوا على زيارة ليوم واحد في الفردوس، سنهجمُ كقطيع أُسُود - وَجَدَت قطع لحم بأسعار مخفضة - ولن نقلق فلحمهم حلال وبأرخص الأسعار، سنبيدُ بعض الرجال والنساء والأطفال حتى الشجر والجماد.

عليهم أن يدفعوا ثمن الرجال الذين فقدانهم، كيف لهؤلاء الحمقى أن يجعلوا شتاءهم باردًا بهذا الشكل، لم تكن سوى مسألة وقت، اجتحنا المدينة الصناعية، دمرنا أبراجها وقتلنا سكانها، لم نرحمهم، ولا مفر، سيجدوننا في البر والبحر والجو. ومن لم يمت برصاصنا قام الجوع بالواجب، ألم أخبركم، ألم نفرض

عليهم الحصار منعًا لدخول حتى الدواء، كنت أستطيع رؤية الأطفال الذين قتلهم الجوع، والرضع الذين فرغت أثداء أمهاتهم وهم يبكون حتى الموت، كم كان صوتهم يُسعد جنرالاتنا أجمل من أجمل معزوفة

لبتهوفن، وقريبًا سنفعل في موسكو نفس الشيء

ما ذنبهم؟

ذنبهم أنهم ساعدوا إنجلترا كما لم يكن ذنبي أو ذنب أصدقائي.

نعم أعلم، أنا لست عبد البصير، لقد مات عبد البصير، والآن لا يوجد سوى عبد البصير هتلر،المخلوق الهجين، مصري المولد، هتلر الجنسية، لقد أصبحت أنا وهو شخصًا واحدًا؛ نرى نفس الشيء، ونحلم بنفس الشيء، لن يحكم العالم بمفرده بل سنحكمه سويًّا.

مثلما وقف هو يومًا يؤدي التحية لملوكه، سيقف من أجلي الملايين في ساحات برلين وباريس ولندن وموسكو، لن أقول شيئًا، ولن يقولوا هم شيئًا،

سيرفعون أيديهم فقط، ويؤدون التحية من أجلي، سيقولون فقط: (هاي عبد البصير).

وبينما أنا غارقًا في أحلامي، انقلب الأمر رأسًا على عقب؛

لقد عاد الروس للمقاومة، لم يستسلموا بعد، ليست فقط سوى حلاوة روح لبقرة – مذبوحة – تظن بتحريك جسدها أنَّ

الجزار سيبتعد؛ هو فقط ينتظرها حتى تُصَفِّي وتُنْهِي ما لديها، سنعتبر أنفسنا في تدريب ليس أكثر.

الوضع يتغير، نقابل الآلاَف من المسلحين، الآن وصلتنا أنباء أنَّ الروس حرروا أوكرانيا من أيدينا، واستعمروهاو هم كل ما حققنا من مكاسب

تذهب، حتى المدينة التي حاصرناها اكتشفنا أنهم نقلوا مصانع السلاح والذخيرة بعيدًا عنا. لم نهاجم سوى كتل حديد فارغة، كل ما فعلناه أننا أبدنا بعض المدنيين العُزَّل والذين لا تساوي حياتهم شيئًا بجانب مصانع السلاح الأكثر أهمية بالتأكيد.

لقد جعلوا النساء تعمل سُخْرَة في تصنيع السلاح عوضًا عن المحاربين، ضاعفوا إنتاجها ٣مرات، وفي المقابل مات العديد من النساء من الإرهاق، وهذا لا يهم؛ فمن السهل جلب غيرهم، إذن هم أيضًا سفاحون، ولكنهم يقتلون أبناء الشعب المكلفين بحمايتهم.

السؤال: هل شاهدتَ أقذر من هؤلاء؟

ولكن تضحياتهم لم تذهب هباءً؛ لقد أمطرنا ستالين بوابل من أيقونته العسكرية (أرجن استالن) مدفع صواريخ نشيط يضمن القضاء على٩٩,٩٩ من الأعداء، مع عدم إبقاء أشلاء لهم؛ لضمان فعالية

أفضل. أضاء السماء فوق رءوسنا، أسقط المزيد من الآلاَف، من لم يقتله السلاح ترك له بصمة ليتذكره بها، رأيت وجوه الجنود تسيح من الإصابة، وكنا نجمع القتيل على أربع مرات، حتى بدأت المعركة الأخيرة، ولكننا أصبحنا المحاصرين. أطبقوا علينا من كل جانب، كنت أضربُ بذخيرة مسدس، وبعدها أحمل بندقية رشاشة، وبعد قليل أحمل قنبلة يدوية، أعدادهم تفوق السحاب، لم أجد سوى أشلاء أسفلي، وأصدقاء يحاربون بوجه مرتعد. لم أبرح حتى وجدت فيلق جنود يقتربون، وقد قَتَلَ أحدهم زميلاً عزيزًا؛ لم أتمالك نفسي؛ أخذتُ سلاحه وسددتُ وابلاً من الرصاص تجاههم، ولم تخب رصاصة في الوصول لصاحبها، ولكن الأعداد لا تنتهي، حاولت الابتعاد قدر المستطاع، وجدتُ ذراعي يستقبل رصاصة، شُلَّ ذراعي،

ربطتُ الجرح واستكملت. كنا نحارب على وعد من هتلر بوصول المدد لنجدتنا، صدرت لنا أوامر بالانسحاب، لا يمكننا الاستكمال أكثر؛ علينا الحفاظ على حياتنا.

وجدتُ السيارة المدرعة أمامي، أَمَّنَّا الانسحاب، تراجعنا بشكل تكنيكي منظم، ولكن هل هذا يمنع القدر، أخيرًا أنا على باب السيارة. وجدتُ صديقًا أُصِيبَ بقدمه ولا يتحرك، هل أُحْضِرُه أم أتركه، لا، لن أترك أحدًا أعرفه يعاني بعد الآن، أسرعتُ وأنا

أضربُ ناراً في كل اتجاه، حملته وتركت السلاح، لم أشعر سوى بصوت جندي سوفياتي مصاباً يُخْرِجُ قنبلة من جيبه ويسددها نحو السيارة. لن يترك حقه هو الآخر، أُلْقِيَت بالقرب مني؛ لم أشعر سوي بظهري ينسلخ كدجاجة في فرن، أقبل الأصدقاء، نحوي أصبحتُ أُحْمَلُ بعد أن كنت أنا الحامل، لم أعرف ماذا حلَّ بصديقي الآخر، لم أشعر سوى بصوت بعوضة تطن.

وجوه نحوي، وشفاه تتحرك، ولا أعلم ماذا تقول؟

سواد يشتد أكثر وأكثر،

بقايا مدينة وبقايا شخص، لا أعلم ماذا حدث بعد ذلك، رحلت لمكان آخر، وان في مكاني، كل ما أذكره «لا تقلقوا سنرسل لكم مدداً» ولم يأتِ مدد، تركنا ما يقرب من ٢٥مليون ضحية كهدية لروسيا وللبشرية حول بطولتنا العظيمة، أمَّا أنا فأنا لا أعرف أي شيء الآن.

●●●

- لماذا شاخ وجهك بُنَيَّ؟

- ما الذي حَلَّ بك؟

- وأين تذهب، أهكذا تقابل والدتك بعد غياب سنوات! انتظر لا تذهب، أين اختبأت؟ هل تريد لعب الغميضة معي؟ ستختبئ ولكنك ستعود لأحضاني عندما تخاف الوحدة، ولكن مما أنت خائف الآن؟ عب عبد عبد البصيررررررر.

- استغفر الله العظيم وأتوب إليه.

- أمي أنتِ بخير، أمي؟

- لا تقلقي، نامي أنتِ.

- مازلتِ تنتظرين عودة من ذهب؟

- أنتظر من غُدِرَ به.

- ماذا تقصدين؟

وبينما الأم والصغيرة يتبادلان الحديث – في وقت لا يستقيظ فيه سوى الديكة – ولكن كان يومًا مختلفًا.

- لا تشغلي بالك بما أقصد ونامي الآن.

- ولددددي.

وفي بيت آخر

- ولدددي.

بيت ثالث

- ولددي.

قامت البلد مفزوعة من صياح متكرر غطى صياح الديكة المستاءة، فتحت الأم الباب وخلفها عينان تتابعان بخوف ما يحدث.

لم يكن سوى عمدة، ومأمور، وعدد كبير من عسكر الجيش يسحبون شبابًا لم يتجاوزوا الخامسة عشر في عربة مدرعة، أمهات مذعورة وآباء لا حول ولا قوة، ولا أحد يفهم ما يحدث.

لم تتمالك الحاجة أعصابها؛ وجدت نفسها تذهب لكتلة لحم لقبها عمدة:

- إلى أين تأخذون كل هؤلاء؟

- لا شأن لكي يا امرأة، لا تقلقي هم لا يريدون ابنتك.

- وابني هل يريدونه؟

صمت العمدة ولم يعقب ثم استكمل:

- إنهم يريدون متطوعين لمساعدتهم فحسب.

- وهل هذه معاملة متطوعين أم أسري؟ تريدون إرسال أطفالاً لتحارب، تقول متطوعون، وهم لم يخرجوا من بيوتهم! متى تطوعوا؟

- إنها أوامر ملكية، سيذهبون للدفاع عن أرضهم، هتلر دخل الحدود، وهو الآن قريب من العلمين، لو احتلنا سيدمرنا، ألهذا الحد لا تهمكم البلاد!

- سيدافعون عن البلاد أم عن لصوص البلد، سيحتلوننا، ألم يخبرك أحد أننا محتلون فعلاً، ولكن كيف والإنجليز أولياء نعمتك؟

- اصمتي يا حشرة وإلا دهستكِ.

- حق ولدي لن يرحل يا كلب السرايا.

- لا تقلقي سأرسلكِ إليه، ونسيت إخبارك أنَّ الحكومة تريد إرسال مدد طعام لجنودنا، ويريدون أراضي، وأنا لا أرى أرضًا خيرًا من أرضك.

- سأجعل هذه الأرض جنة لا تطؤها قدم شيطان مثلك.

عادت الحاجة لمنزلها تُداري دموعًا قوية، أخفت بين طياتها عزيمة وضعف في نفس الوقت، تحسست سكينًا احتفظت به لثأر ولدها، تشعر الآن بأنه حان وقته لتكشر عن أنيابه.

في نفس الوقت الذي مات فيه شباب على أرض العلمين بشرق مصر، وبعض البشوات يَدّعُون لهم بالرحمة أمام خزائن البلاد، في الوقت الذي تعاظم فيه حب البلاد لدى المصريين، ولم يكن على ألسنتهم سوى (إلى الأمام يا روميل).

●●●

ما كل هذا الصداع ولماذا رأسي تدور هكذا؟

أخيرًا أفقتُ من غفلتي، أشعر أنني أغفلتُ طويلاً، جيد أنني لم أمت بعد، ولكن لماذا المكان هنا ضبابي، أنا بالكاد أرى يدي، ها، أين هي؟

- مازلت تعافر بعد؟
- من أنت، ومن أين تتكلم، ولماذا صوتك يُشبه صوتي؟
- حقًّا لا تعرفني.

ولاح من الأفق كضوء أسمر ساطع.

- أنت تُشبهني تمامًا.
- قد أكون شبيه لك، ولكن لا يُشرفني أن أكون أنت.
- من أنت إذن؟
- عبد البصير السيد إمام.

obeikan.com

- أنت أنا إذن.

- قلتُ سيد إمام، وليس أدولف هتلر.

- هل أنت صوت ضميري الأحمق، جاء ليرشدني لطريق الصواب.

- الضمير للبشر وليس للحمقى.

- وهل ضميري أسود هكذا، هههه.

- كنتَ أسود اللون وأبيض القلب.

- كنتُ أحمقًا.

- كنتَ على الأقل إنسان، وليس حيوان.

- إنسان مجنون، إنسان ساذج، كنتُ أتعرض للإيذاء، واصمت؛ ماذا فعلت لتلومني؟ لقد سُرِقَت مني حبيبتي، وسُرِقَت أرضي وعائلتي، وخسرت نفسي، عُذِّبتُ وشُرِّدتُ وقُتِلَ أصدقائي أمام عيني، أين كنتَ، وماذا فعلت؟ كيف لي أن أُدْهَسُ ولا أُخْرِجُ صوتًا! كيف لي أن تُشْعَلُ نار بجانبي ولا أحترق! لا أريد أن أكون الأحمق، أريد أن أكون هتلر. هتلر الذي يأخذ حقه، هتلر الذي يخشاه الجميع، هتلر الحاكم القادم للبشر، هتلر ليس شخصًا، هتلر هو فكرة، هتلر عقيدة، هتلر إله.

obeikan.com

- وهل أنت الآن إله؟ هل ستُنَصَّبُ على عرش العالم قريبًا، كل ما فعلته أنك لطخت يدك بالدماء، قتلت رجالاً ونساءً وأطفالاً، هل أنت فخور بنفسك الآن، هل هكذا استرديتَ حبيبتك؟ هل هكذا استعدتَ أرضك وعائلتك؟ هل زُيِّنَت رأسك بإكليل النصر؟ أنت الآن مجرد مسخ.

- انتظر، إلى أين تذهب، أخرجني من هنا.

- أخرج نفسك، إن استطعت.

- انتظر، انتظر، انتظررررررني.

ها قد عدتُ للعالم الحقيقي، ارحل يا أحمق لا أريدك،

ولكن أين أنا الآن؟ ما هذا؟ أنا في مشفى في ضواحي برلين، ولكن لما أنا هنا، العِبَارَات ألمانية، الخطوط ألمانية الأجواء ألمانية.

أيعقل أنَّ الجنود نقلوني من روسيا حتى هنا! وهل بتلك السهولة خسرنا من الاتحاد السوفياتي، وكم من الوقت وأنا مصاب؟ ولكن كان هناك أسئلة كثيرة: لماذا المشفى فارغ؟ ولماذا مُدَمَّر من فوق؟ وما كل هذا الدمار الذي حلَّ بالمدينة؟ لولا اللغة والتصميم المعماري لما صَدَّقْتُ أنني ببرلين. وأين البشر؟ هل أصبحت مدينة أشباح؟ ولكن السؤال الأهم والذي طرحته في الحلم أين كَفِّي الأيسر؟

هل أُصبِتُ في المعركة؟ هل أصبحتُ ذا إعاقة؟ كيف سأكون بجيش هتلر بتلك الإصابة؟ وما تلك الملابس التي أرتديها؟

هل خرجت من حلم لأدخل حلمًا آخر؟ هل تلك أسوا أحلامي، أم أفزع كوابيسي؟

خرجتُ لأجد الحطام، كل شيء انتهى ودُمِّر، قابلتُ في طريقي جنديًّا - علامات الفزع ستقفز من وجهه - لم يقل سوى شيئًا واحدًا:

- أُنجُ بعمرك.

بعد تلك الجملة أدركتُ النهاية، اختبأت وعلمتُ كل شيء، علمتُ كيف سقطت إيطاليا، وأُعْدِمَ موسوليني، كيف دخلت الولايات الحرب، كيف انهزمت النمسا والمجر، وكل المحور، كيف أنَّ الروس قادمون لزيارتنا ليردوا تحية هتلر صاعين بدلاً من صاع، كيف عادت فرنسا، وكيف تحاصرنا أمريكا من الغرب، علمتُ أنَّ الروس اقتحموا حواجز الدفاع وأطلقوا أكثر من مليون قذيفة - مدفع في - أول يوم من الغزو.

تَمَثَّل كل هذا في شيء واحد؛ كيف اقتربت النهاية؟

تحصلتُ على مسدس من جثة هامدة، أقسمتُ على الدفاع حتى الرمق الأخير، هكذا ميت وهكذا سأموت، ولكن كل شيء توقف عندما أدركت النهاية، وأنَّ هتلر رحل للأبد.

أذكر أنني أخبرتكم بكل هذا في البداية، وضعتُ مسدسًا على رأسي لأضع كلمة النهاية، حتى صوت إطلاق النار، ولكن لم يكن أنا بل الروس الذين طالبوني بالاستسلام.

أدركتُ للحظات أنني مازلتُ مسلمًا وأنَّ انتحاري كفر، يكفي ما فعلته، سلمتُ نفسي لهم على كل حال، سيقتلونني لا محالة، ولكن الفرق أنها ستكون محاكمة سريعة، ولن تُذَاعَ للعالم؛ ليشاهدوا الحلفاء المسالمين يعيدون لعالم سلامة الضائع.

الوضع سيكون مريحًا وسريعًا؛ قاتل منتصر يُحَاكِمُ قاتلاً مهزومًا، لن يرفق به ولن يرحمه، سيُدِينَه ببعض الجرائم – الشنيعة – المضاف عليها نكهة العدالة الكاذبة، وكما قلتُ سابقًا: رصاصة واحدة تنهي كل شيء، عبد البصير سيُسْجَنُ قليلاً ولكن سيموت سريعًا.

أتحركُ الآن وسط موكب مهيب، عزيز قومٍ يُذَلُّ، أعطيتُ وجهي لحائط خَضَّبَتْهُ دماءٌ كانت تظن نفسها أرقى من البشر، سدد الروس فوهات الرشاشات تجاهي، كما أنا سعيد الآن، ولكن حتى السعادة لا تدوم:

- أوقفوا الحُكْمَ، وسَلِّمُوه للقيادة لإخلاء سبيله.

؟

●●●

أمي الغالية:-

أكتبُ لكي الآن من ظهر سفينة بريطانية، هل تصدقين هذا؟ أنا عائد لمصر خلال يومين، كان من المفترض ألا أكتب، ولا أركب، ولا أعود، كل شيء تَغَيَّر في لحظة واحدة؛ فبعد توقف الحُكّمُ نقلوني للقيادة، وجدتُ القائد يهنئني أنني مازلتُ حيًّا – ولم أشكره على التهنئة؛ ليس لأنني كنتُ أريدُ الموت، ولكن لم أفهم لغته الروسية – ويعتذرُ لي وأخبرني بجملة سمعتها من قبل كانت سبب موتي وحياتي:

- (وجدنا اسمك مدرجًا تحت الخدمة العسكرية البريطانية).

عودا لمكاني الطبيعي أنا واحد من الحلفاء، والحلفاء لا يقتلون بعضهم، فقط يدمروهم.

– عزيزي المسكين ماذا فعلوا بك؟ من المؤكد أهانوك وعذبوك؛ كي تساعدهم، ولكن لا تقلق سنعيدك إلى مصر قريبًا، أنت بطل الآن.

ليتهم يعرفون حقيقتي ويقتلوني، مكثتُ في ألمانيا أسبوعًا حتى ألحقوني بسفينة متجهة صوب مصر ،

مكثتُ أراقبُ الألمان أو ما تَبَقَّى منهم.

أمي الغالية:-

وجدتُ هناك نساءً لا يقلون عنكِ، يصنعون الطعام ثم ينقلون الحطام من فوق منازلهم، وجدتُ أطفالاً تجلس في ما يشبه مدرسة؛ ليحصلوا العلم، وجدتُ رجالاً كُهَّلاً ينسون آلاَم الغضروف والضغط وشرعوا في العمل مكان الشباب الموتى الآن.

وجدتُ شعبًا يريد العودة للحياة، لا يبكي على ماضيه بل ينتظر حاضره، لقد تركوا اللبن المسكوب وأخذوا في تربية البقر؛ لصنع لبن آخر، هل هذا هو الحال في بلدنا الآن!

كل ما حدث أنَّ العسكر طردوا الملوك، ولكنهم سكنوا في قصورهم الذهبية، وارتدوا حريرهم، وأخذوا ألقابهم، حتى سطوتهم لم ينسوها.

أمي الغالية:-

الحرب دمار، الحرب هزيمة للمنتصر والمهزوم، الحرب لا تَقْتُلُ السياسيين ولا التجار ولا أصحاب الذهب، الحرب تقتل البسطاء فقط.

طوال الحرب لم أجد وزيرًا أو زعيمًا أو رئيس قضاة قُتِل، وجدتُ فقط أموالهم تزيد، وبطونهم تمتلئ.

أمي الغالية:-

قد لا أعود في القريب العاجل، هناك أشخاص وقفوا بجانبي؛ أريد أن أَرُدَّ لهم عرفانهم الذي لم أستطع أن أرده سابقًا.

- عبد البصير عبد البصير.
- ماذا يوجد فلادمير؟
- أقسم أنني أرى منارة ميناء الإسكندرية، ألن تذهب لترى؟
- حالما أنتهي سأذهب وأرى.
- هل هذا الجواب لصديقتك؟

– بل لأمي.

– من المؤكد أنك مشتاق لها، وهي مشتاقة لك، ماذا ستفعل عندما تعود؟

– لديَّ أولاً كَمٌّ عملٍ أريد إنجازهم، وقد لا أعود.

– ماذا تقصد؟

– دعك مني أنا أهذي، فقط ما أريدك أن تعرفه أنَّ والدتي لا تعرف القراءة.

obeikan.com

- يبدو أنك لم تنم جيدًا، هل ستأتي إذن لترى الإسكندرية؟

- سأعود يومًا ما، سأعود.

تمت

محمد علي

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com